

أصحاب الأثر | إمام المدينة

مالك بن أنس



مدارج السير

أصحاب الأثر

مالك بن أنس

إمام المدينة

تأليف وتوزيع مدارج

الإهداء

إلى من يرجو أن يكون لعلمه صدقٌ في قوله، وأدبٌ في خلافه،
ونفعٌ يبقى بعد مجلسه.

وإلى من أحبّ أهل العلم، وأراد أن يعرف الطريق الذي سلكوه:
كيف أصغوا قبل أن يتكلموا، وكيف حملوا ما أخذوه إلى الناس.
هذه صحبة مالك؛ نقرب فيها من حياته، لعلنا نخرج من محبته
بخطوةٍ نهتدي إليها في حياتنا.

فهرس الكتاب

5	تمهيد - صحبة عالم المدينة
7	الباب الأول - المدينة التي صنعتها
8	الفصل الأول - علمُ يورثُ كبراً عن كابر
13	الفصل الثاني - بيت من ذي أصبح
18	الفصل الثالث - سنوات الإصغاء: ابن هرمز
21	الفصل الرابع - على باب نافع، وفي مجلس ابن شهاب
29	الفصل الخامس - لا يجلس حتى يؤذن له
32	الباب الثاني - المشروع وهو يعمل
33	الفصل السادس - حديثُ رسول الله لا يؤخذ قائماً
37	الفصل السابع - مجلسٌ لا لغط فيه
40	الفصل الثامن - الموطأ: أعوام من الجمع والمراجعة
57	الفصل التاسع - حين يكون الجواب: لا أدري
64	الفصل العاشر - رسالتان بين المدينة ومصر
75	الباب الثالث - من حمل العلم
76	الفصل الحادي عشر - كتاب يسافر: تلاميذ مالك ورواة الموطأ
86	الباب الرابع - الاختبارات
87	الفصل الثاني عشر - مالك والأئمة: أبو حنيفة والشافعي ومحمد بن الحسن

102	الفصل الثالث عشر — مالك والخلفاء
110	الفصل الرابع عشر — المحنة: ما ثبت وما اختلف فيه
130	الفصل الخامس عشر — ما حفظ عنه في الاعتقاد
154	الباب الخامس — الرحيل والأثر
155	الفصل السادس عشر — المرض والوفاة
167	الفصل السابع عشر — ما بعد الرحيل: كيف صار الرجل مذهباً، وما الذي اختلف فيه بعده
188	باب: الأقوال والوصايا المأثورة
215	ملاحق

تمهيد — صحبة عالم المدينة

جاء رجلٌ من بعيدٍ. قطع الطريق ستة أشهر، يحمل مسألةً حمّله إياها أهل بلده إلى الرجل الذي كانت تُضرب إليه أكباد الإبل. فلما سأل، كان الجواب الذي حفظه التاريخ عن مالك بن أنس:

حدثنا أحمد بن سنان قال سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: كما عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال: يا أبا عبد الله جئتُك من مسيرة ستة أشهر، حملني أهل بلادي مسألة أسألك عنها. قال فسل، قال فسأل الرجل عن أشياء فقال: لا أحسن، قال فقطع بالرجل كأنه قد جاء إلى من يعلم كل شيء قال: وأي شيء أقول لأهل بلادي إذا رجعت إليهم؟ قال تقول لهم قال مالك بن أنس: لا أحسن.^{X1}

استثقل السائل هذا الجواب بعد طول السفر، وسأل عما يقوله لأهل بلده. فأذن له مالك أن يحمل عنه ما سمع: «لا أحسن». ستعود هذه الكلمة في أخباره، لكننا نحتاج قبلها إلى معرفة الرجل الذي قالها، والطريق الذي جعله موضع سؤال القادمين من تلك البلاد.

سنصحب مالكا من المدينة التي نشأ فيها، ومن بيت اتصل بالقرآن والرواية، إلى أبواب شيوخه ومجلسه. يطيل الإصغاء، ويبحث عن يأخذ عنه، ثم يجلس للناس بعدما شهد له أهل العلم. يأتيه البعيد بسؤاله، ويأتيه الخليفة بطلبه، وتبقى للعلم حرمة عند هذا وذاك.

اتسعت حياته للتعلم والعبادة والبيت والصحبة، ثم حمل تلاميذه كتابه إلى بلاد لم ير حل إليها. وفي الطريق محنة تركت أثرا في أخباره، وخلاف حفظت الرسائل بعض أصواته، وأعوام من النظر والمراجعة وراء الكتاب الذي عرفه الناس.

قال: «إنما أنا بشر أخطئ وأصيب». بقيت هذه الكلمة إلى جانب علمه ومنزلته، وحفظ أصحابه ما تعلموه منه وما راجعهم فيه. تتبين في الحواشي طرق الأخبار، وتبقى في السيرة أفعاله وأصوات من عرفوه.²

ثم نسأل في آخر الصحبة سؤالا يخصنا نحن: ماذا يصنع قارئ اليوم برجل لم يفت حتى شهد له سبعون أنه أهل لذلك؟

٢ — ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، رقم 1435، بإسناده عن معن بن عيسى

عن مالك.

الباب الأول — المدينة التي صنعته

الفصل الأول — علمُ يُوْرثُ كُبراً عن كُبر

نشأ مالك في مدينة ما زال علم الصحابة فيها قريباً من حلقات المسجد والبيوت. يسمع التابعون ممن سبقهم، ويقصدهم الطلاب بالسؤال. سيجلس بينهم فتى يطيل الإصغاء، ثم يصير هو الشيخ الذي ينتظره القادمون.

وقد حفظ أهل المدينة أسماء الذين كانت تُرفع إليهم المسائل في الجيل الذي تلا الصحابة. يروي ابن سعد عن أبي الزناد، وهو من فقهاء المدينة الذين أدركوا تلك الطبقة:

أخبرنا محمد بن عمر، أخبرنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، قال: كان السبعة الذي يسألون بالمدينة وينتهى إلى قولهم: سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، والقاسم بن محمد، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار. ³X

وفي رواية أخرى عن أبي الزناد نفسه زيادةٌ تكشف كيف كان الاختلاف يحسم بينهم:

كان من أدركت من فقهاءنا بالمدينة الذين ينتهى إلى قولهم منهم: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد، وأبو بكر بن

عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وخارجة بن زيد بن ثابت، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وسليمان بن يسار في مشيخة سواهم من نظرائهم أهل فقه وفضل وربما اختلفوا في الشيء فأخذنا قول أكثرهم وأفضلهم رأياً، وكل هؤلاء السبعة قد روى عنهم الزهري.⁴

كان السائل يجد أمامه رجالاً يعرف أهل المدينة فضلهم وفقههم، وقد يسمع منهم أجوبة مختلفة. وحفظ أبو الزناد أنهم كانوا يأخذون بقول أكثرهم وأفضلهم رأياً. من هذا العالم المتعدد الشيوخ سيأخذ مالك، وفي أخبارهم سنجد بعض ما يفسر طريقته في النظر والجواب.

وعلى رأس هذه الطبقة سعيد بن المسيب. يروي ابن سعد عن محمد بن يحيى بن حبان: «كان رأس من بالمدينة في دهره والمقدم عليهم في الفتوى سعيد بن المسيب، ويقال: فقيه الفقهاء».⁵ وقد وصل إلى مالك من أخباره ما يبين له مبكراً أن العلم في هذه المدينة له حدود يقف عندها صاحبه. يروي ابن سعد:

٤ — ابن أبي خيثمة، التاريخ الكبير، السفر الثاني، رقم 2726.

٥ — ابن سعد، الطبقات 7/121.

أخبرنا مطرف بن عبد الله، أخبرنا مالك بن أنس، عن يحيى بن سعيد، قال: سئل سعيد بن المسيب عن آية من كتاب الله، فقال سعيد: لا أقول في القرآن شيئاً، قال مالك: وبلغني عن القاسم بن محمد مثل ذلك. ⁶X

روى مالك جواب سعيد، وبلغه مثله عن القاسم. وهكذا بقي في علم الشيوخ الذي حمّله ما قالوه وما توقفوا عن قوله؛ أخبار صغيرة في ظاهرها، لكنها تعرفنا بحدود الكلمة عند من يقصدهم الناس بالسؤال.

ثم جاءت طبقةٌ تاليةٌ حملت العلم عن هؤلاء: ابن شهاب الزهري، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وعبد الله بن يزيد بن هرمز، وأبو الزناد، ونافع مولى ابن عمر. وقد حفظ الذهبي خبراً يصف فيه مالك نفسه هذا التسلسل، حين بعث إليه الخليفة المهدي ليسمع منه ابنه هارون وموسى، فامتنع مالك أن يذهب إليهما، فلما جاءه أراد مؤدبهما أن يقرأ مالك عليهما، فقال: إن أهل المدينة يقرؤون على العالم، كما يقرأ الصبيان على المعلم، فإذا أخطؤوا، أفتاهم. فرجعوا إلى المهدي، فبعث إلى مالك، فكلّمه، فقال: سمعت ابن شهاب يقول: جمعنا هذا العلم في الروضة من

رجال، وهم يا أمير المؤمنين: سعيد بن المسيب، وأبو سلمة، وعروة، والقاسم، وسالم، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار، ونافع، وعبد الرحمن بن هرمز، ومن بعدهم: أبو الزناد، وربيعة، ويحيى بن سعيد، وابن شهاب، كل هؤلاء يقرأ عليهم، ولا يقرؤون. فقال: في هؤلاء قدوة، صيروا إليه، فاقروا عليه، ففعلوا.⁷

ومن هذه الصورة نفهم كلمة الحاكم أبي عبد الله، فيما نقله الذهبي، في وصف ما تغير بجيء مالك: ذكر الحاكم سادة التابعين بالمدينة كابن المسيب ومن بعده، ثم قال: «فما ضربت أكباد الإبل من النواحي إلى أحد منهم دون غيره، حتى انقرضوا، وخلا عصرهم، ثم حدث مثل ابن شهاب، وربيعة، ويحيى بن سعيد، وعبد الله بن يزيد بن هرمز، وأبي الزناد، وصفوان بن سليم، وكلهم يفتي بالمدينة، ولم ينفرد واحد منهم بأن ضربت إليه أكباد الإبل، حتى خلا هذا العصر، فلم يقع بهم التأويل في عالم أهل المدينة. ثم حدث بعدهم مالك، فكان مفتيها، فضربت إليه أكباد الإبل من الآفاق».⁸

٧ - الذهبي، سير أعلام النبلاء 8/63-64، بإسناده عن عمر بن الخطاب الرازي.

٨ - الذهبي، سير أعلام النبلاء 8/61، نقلاً عن الحاكم.

كان مالك في أول الطريق ينتظر الشيخ ويسأله ويحفظ ما يسمع.
ثم جاءه الناس من بلاد بعيدة. بين هذين الموضعين أعوام من
التعلم، تبدأ أخبارها من البيت ومن شيوخ المدينة.

الفصل الثاني — يَتُّ من ذي أصبح

النسب والجد

ينتهي اسمه في كتب التراجم إلى ذي أصبح، ويفتح خبر الأسرة باباً إلى نشأته في المدينة. أثبت ابن سعد نسبه:

مالك بن أنس ابن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث، وهو ذو أصبح بن حمير. وعداده في بني تيم بن مرة من قریش إلى عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي. ^{X⁹}

فهو عربيٌّ من ذي أصبح، من حمير اليمن، نزل جده المدينة فصار حليفاً لبني تيم من قریش. وقد سئل عمه أبو سهيل عن أصل الأسرة فقال، فيما رواه الفسوي بإسناده:

إنا قوم من ذي أصبح، قدم جدنا المدينة وحاله خفيف فتزوج مولاة للتيمين، فكان يحفظه ويكون معهم، فنسبنا إليهم وليس لهم علينا نعم ولا غيرها. ^{X¹⁰}

٩ — ابن سعد، الطبقات 7/570.

١٠ — الفسوي، المعرفة والتاريخ 1/683.

وجده مالك بن أبي عامر من كبار التابعين، روى عن عمر وعثمان وطلحة وأبي هريرة وعائشة، ووثقه النسائي وغيره.¹¹ وقد حفظ مالك عن جده شيئاً يذكر به: قال الوليد بن مسلم: «قال مالك: كان جدي مالك بن أبي عامر ممن قرأ في زمن عثمان، وكان يكتب المصاحف».¹² ومات الجد في أول خلافة عبد الملك بن مروان، سنة أربع وسبعين، كما رواه ابن أبي أويس عن أبيه عن الربيع بن مالك.¹³

قبل أن نعرف مجلس مالك، نعرف من أسرته جداً يكتب المصاحف ويروي الحديث، وعمّا هو أبو سهيل يأخذ عنه أهل العلم. هذه صلوات محفوظة بالقرآن والرواية؛ أما سائر ما كان يدور في البيت من أحاديث التعليم والتربية، فلم يصلنا ما يملأ به الكاتب يوميات طفولته.

١١ - المزي، تهذيب الكمال 148/27-149.

١٢ - المصدر نفسه 149/27.

١٣ - المصدر نفسه.

أما أبوه أنس فقليل الخبر في المصادر، وذكر القاضي عياض، بلا إسناد، أنه كان مُقعداً، وأنه كان يعيش من صنعة النبل.¹⁴ وأمه عالية بنت شريك الأزديّة، كما سماها الذهبي.¹⁵

المولد

أشهر الأقوال أن مالكا ولد سنة ثلاث وتسعين، وهو قول يحيى بن بكير ورجحه الذهبي. وقيل غير ذلك، بين تسعين وسبع وتسعين. ومن أسباب الاختلاف خبر ابن فليح أن مالكا أكبر من أبيه المولود سنة ثلاث وتسعين بثلاث سنين.¹⁶ وفي حديث علي بن المديني مع ابن عيينة تقدير آخر لسنه حين كان يأتي الزهري.¹⁷ فلا يجزم الكتاب بسنة تخلو من خلاف؛ وقد نشأ في المدينة وبار التابعين حاضرون فيها.

١٤ - القاضي عياض، ترتيب المدارك 1/113.

١٥ - الذهبي، سير أعلام النبلاء 8/48.

١٦ - السير 8/49 و8/71؛ ترتيب المدارك 1/118. وخبر محمد بن فليح: الفسوي، المعرفة والتاريخ 1/171 (في حوادث سنة تسع وسبعين ومئة)، عن إبراهيم بن المنذر عن محمد بن فليح، وهو حساب لا تاريخ مصرح به، ولا نزح به.

١٧ - الجرح والتعديل (التقدمة) 1/26-27.

صبي يحفظ الحديث

وصل القليل من أخبار طفولته. ومما رواه مالك عن نفسه أنه كان يأتي نافعاً «وأنا يومئذ غلام حديث السن ومعني غلام لي».¹⁸ أما حكاية تتبعه ظلال الشجر وحديث أخته مع أبيه فذكرها القاضي عياض بلا إسناد:

قال أنس بن عياض جالست ربيعة ومالك يومئذ معنا وما يعرف إلا بمالك أخو النضر ثم ما زال حرصه في طلب العلم حتى صرنا نقول النضر أخو مالك، وكان لمالك حين طلبه يتبع ظلال الشجر ليتفرغ لما يريد. فقالت أخته لأبيه هذا أخي لا يأوي مع الناس قال يا بنية إنه يحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.¹⁹ X
ومن هذا الباب أيضاً ما ذكره عياض عن أمه، وهو من أشهر ما يروى في سيرته، وليس له إسناد في الكتب المسندة التي بين أيدينا:

قال مطرف، قال مالك: قلت لأبي أذهب فأكتب العلم؟ فقالت تعال فالبس ثياب العلم. فألبستني ثياباً مشمرة ووضعت الطويلة على رأسي وعممتني فوقها. ثم قالت: اذهب فاكتب الآن. وقال

١٨ - الفسوي، المعرفة والتاريخ 1/646.

١٩ - ترتيب المدارك 1/131، بلا إسناد.

رحمه الله: كانت أمي تعممني وتقول لي اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه. ²⁰X

تبقى الحكاية على هذا القدر من التثبت، وفيما يأتي من أخباره المسندة مجال أوسع لمعرفة أدبه مع شيوخه وعنايته بالحديث. نقترّب من ذلك في مجالس تعلم فيها، وحفظ هو بعض ما كان يجري فيها.

وذكر عياض عن ابن القاسم بلا إسناد أنه نقض سقف بيته وباع خشبه لطلب العلم، ثم قال: «وروي مثل هذا عن ربيعة».²¹ لذلك لا نعتمدها واقعة يقينية في حياته.

٢٠ — ترتيب المدارك 1/130، بلا إسناد.

٢١ — ترتيب المدارك 1/130-131.

الفصل الثالث — سنوات الإصغاء: ابن هرمز

ثلاث عشرة سنة

لزم مالك عبد الله بن يزيد بن هرمز أعواماً. يعود إليه، ويطيل الجلوس عنده، ويحفظ من علمه ومن أدبه في الجواب. وحين تحدث عن هذه الصحبة رواها بما بقي من أثرها فيه.

جالست ابن هرمز ثلاث عشرة، كما نجلس في صحن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم حتى اتخذت سراويل محشوا. ²² X

وروى ابن سعد عن مطرف عن مالك: «وكنت آتي ابن هرمز بكرة، فما أخرج من بيته حتى الليل، وكان من الفقهاء».²³

من البكرة إلى الليل: هكذا وصف مالك طول يومه عند ابن هرمز. يجلس الطالب ساعات، ثم يعود إلى الشيخ، وتتعاقب على هذه الصحبة أعوام. وفي تفاصيل السراويل المحشوا التي وردت في الخبر أثر من عناية الطالب بما يعينه على احتمال الجلوس؛ أما سببها المفصل فلا يبينه النقل.

٢٢ — الجرح والتعديل (التقدمة) 1/27-28.

٢٣ — ابن سعد، الطبقات 7/571.

واختلفت الروايات في عدد السنوات: ثلاث عشرة عند ابن أبي حاتم، واثنى عشرة في رواية أوردها الذهبي، وأعداد أخرى ذكرها عياض.²⁴ يبقى طول الملازمة ظاهراً، مع حفظ اختلاف ألفاظها.

الشيخ الذي كان يرجع عن فتواه

ذكر مالك ما أحبه في ابن هرمز، فيما رواه ابن وهب عنه: كان ابن هرمز رجلاً كنت أحب أن أقتدي به، وكان قليل الكلام قليل الفتيا، شديد التحفظ وكان كثيراً ما يفتي الرجل، ثم يبعث في أثره من يرده إليه حتى يخبره بغير ما أفاته. قال: وكان بصيراً بالكلام، وكان يرد على أهل الأهواء وكان من أعلم الناس بما اختلف فيه من هذه الأهواء.²⁵

كان الشيخ يبعث خلف السائل ليصحح جوابه. وقد مضى الرجل بحاجته، لكن المسألة لم تمض من عناية ابن هرمز؛ يعود إليها، ويستدرك ما تبين له فيها. حفظ مالك هذا الفعل كما حفظ المسائل التي تعلمها، وروى عن شيخه ما جعله أحب إليه.

٢٤ - السير 8/127؛ ترتيب المدارك 1/81 و1/131.

٢٥ - الفسوي، المعرفة والتاريخ 1/652.

ومن وصاياه التي نقلها مالك ما رواه الخطيب عن ابن وهب عنه: أنه سمع عبد الله بن يزيد بن هرمز، يقول: ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده لا أدري، حتى يكون ذلك أصلاً في أيديهم يفزعون إليه، إذا سئل أحدهم عما لا يدري، قال: لا أدري. ^{X²⁶}

أراد ابن هرمز أن يبقى هذا الأدب في جلسائه. يحملون عنه العلم، ويحملون معه القدرة على التوقف حين لا يعلمون. وسيكون مالك بعد أعوام في موضع الشيخ الذي تتجه إليه الأسئلة، فيحتاج إلى ما تعلمه من الكلام ومن الصمت معاً.

وكان مجلس ابن هرمز يجمع طلاباً صاروا بعدُ أعلام المدينة. يروي الفسوي عن مطرف عن مالك:

كنا نأتي عبد الله بن يزيد بن هرمز فيلقي بعضنا على بعض ونتكلم، ومعنا ربيعة وابن أبي سلمة، فجئنا يوماً فكثر كلامنا، وداود بن قيس الفراء صامت لا يتكلم، فقلت لابن هرمز: يا أبا بكر ما تقول؟ قال: ما أدري ما يقولون أما أنا فأحب أن أكون مثل هذا، وأشار إلى داود بن قيس كأنه أعجبه صمته. ^{X²⁷}

٢٦ — الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه 2/367؛ وانظر الانتقاء لابن عبد البر ص38.

٢٧ — الفسوي، المعرفة والتاريخ 1/685-686.

الفصل الرابع — على باب نافع، وفي مجلس ابن شهاب

نافع: الانتظار في الشمس

كان نافع يحمل علم عبد الله بن عمر، وكانت له حدة يعرفها من يقصده. على بابه يقف مالك، ويحتمل الانتظار، ثم يتخير وقت السؤال. حفظ الشيخ بعد ذلك قصة الغلام وهو يطلب هذا العلم. حدثنا مالك بن أنس، قال: كنت آتي نافعاً مولى ابن عمر نصف النهار ما يظلني شيء من الشمس، وكان منزله بالنقيع بالصورين، وكان فيه حدة، فأتحين خروجه فيخرج فأدعه ساعة، وأريه أني لم أردّه، ثم أعرض له، فأسلم عليه، ثم أدعه حتى إذا دخل البلاط أقول: كيف قال ابن عمر في كذا وكذا؟ فيقول: قال: كذا وكذا، فأخنس عنه.²⁸

وفي رواية ابن وهب عن مالك: «فكنت آتي نافعاً مولى ابن عمر وأنا يومئذ غلام حديث السن ومعني غلام لي فينزل إلي فيقعد معي ويحدثني. قال: وكان يجلس بعد صلاة الصبح في المسجد لا يكاد يأتيه أحد».²⁹

٢٨ — ابن سعد، الطبقات 7/571.

٢٩ — الفسوي، المعرفة والتاريخ 1/646.

يمضي مالك إلى نافع، وينتظر خروجه، ثم يتحين سؤاله. تبدو مسافة الأخذ عن الشيخ هنا في حر الشمس ووقت الانتظار وعبرة السؤال، قبل أن تختصرها كتب الرواية في اسمين متتابعين. وفي الخبر الآخر يأتيه نافع فيجلس إليه ويحدثه؛ فقد كانت للصحبة صور حفظ الرواة بعضها.

وقد أثمر هذا الصبر ثقةً لا تحتاج إلى شاهد. روى ابن أبي حاتم عن بشر بن عمر: «سمعت مالكا يقول: كنت إذا سمعت نافعا يحدث عن ابن عمر لا أبالي أن لا أسمعه من غيره».³⁰ وبعد جيلين سُئل البخاري عن أصح الأسانيد فقال: «مالك عن نافع عن ابن عمر».³¹

ابن شهاب: أربعون حديثاً

وقدم ابن شهاب الزهري المدينة، وكان قد جمع علم فقهاء السبعة ومن بعدهم. يروي حسين بن عروة عن مالك:

قدم علينا الزهري، فأتيناه ومعنا ربيعة، فحدثنا بنيف وأربعين حديثاً، ثم أتيناه من الغد، فقال: انظروا كتاباً حتى أحدثكم منه،

٣٠ - الجرح والتعديل (التقدمة) 1/20.

٣١ - المزي، تهذيب الكمال 27/110، عن محمد بن إسحاق السراج.

أرايتم ما حدثكم به أمس، أيش في أيديكم منه؟ فقال ربيعة: ها هنا من يرد عليك ما حدثت به أمس. قال: ومن هو؟ قال: ابن أبي عامر. قال: هات. فسرده له أربعين حديثا منها. فقال الزهري: ما كنت أرى أنه بقي من يحفظ هذا غيري.³² X

وقد زادت كتب المناقب على هذا الخبر تفاصيل كثيرة: يوم العيد، والجارية، والألواح، وقول الزهري له: «أنت من أوعية العلم». وهي عند عياض بلا إسناد، فنقف عند الأصل المسند.³³ بل حفظ الذهبي بإسناده رواية أخرى عن أشهب عن مالك فيها أن ابن شهاب أبي أن يعيد عليه: «حدثني ابن شهاب، فقلت له: أعده علي. قال: لا. قلت: أما كان يعاد عليك؟ قال: لا. فقلت: كنت تكتب؟ قال: لا».³⁴

بقي لابن شهاب هذا الموضع في ذاكرة مالك. ومن ثنائه عليه ما رواه ابن أبي حاتم: «أول من أسند الحديث ابن شهاب»، وقوله:

٣٢ — الذهبي، سير أعلام النبلاء 8/72، عن نصر بن علي عن حسين بن عروة عن مالك؛ ونحوه عند المزي، تهذيب الكمال 27/114.

٣٣ — ترتيب المدارك 134-135.

٣٤ — السير 8/127.

«بقي ابن شهاب وماله في الدنيا نظير».³⁵ ثم نراه، مع هذا التقدير، يميز بين ما سمعه من الشيخ وما اختار أن يحدث به الناس. ومع هذا الإعجاب، لم يجعل مالك حفظه عن الزهري ميزاناً وحده. روى أبو نعيم بإسناده عن مالك:

سمعت من ابن شهاب أحاديث لم أحدث بها إلى اليوم، قلت: لم يا أبا عبد الله قال: لم يكن العمل عليها فتركتها. X³⁶

سمع مالك هذه الأحاديث وحفظها، ثم ذكر العمل سبباً لترك التحديث بها. هنا يلوح سؤال سنصحه إلى رسالته مع الليث: ما العمل الذي يحتاج به، وكيف يزن صلته بالرواية؟ في كلامه جواب، وفي اعتراض صاحبه ما يدعونا إلى مزيد من الفهم.

ربيعة: حلاوة الفقه

وأما ربيعة بن أبي عبد الرحمن، المعروف بريعة الرأي، فقد لزمه مالك في الفقه وعدّ نفسه من أصحابه. يروي الفسوي عن ابن بكير: «قال مالك: كان طلبة هذا الشأن ببلدنا أربعة، كثير بن فرقد عاجلته المنايا، وعبد الرحمن بن عطاء غرر بنفسه وآخر وقع في

٣٥ - الجرح والتعديل (التقدمة) 1/20.

٣٦ - أبو نعيم، حلية الأولياء 6/322.

الأغاليط. قال ابن بكير يريد الماجشون. وسكت عن نفسه».³⁷
وقال مالك بعد موته، فيما رواه مطرف عنه: «ذهبت حلاوة
الفقه منذ مات ربيعة».³⁸

ولم تكن الصحبة بينهما خالية من التأديب. يروي الزبير بن بكار
عن مطرف عن مالك:

لما أجمعت التحويل عن مجلس ربيعة، جلست أنا وسليمان بن
بلال في ناحية المسجد، فلما قام ربيعة، عدل إلينا، فقال: يا مالك،
تلعب بنفسك زفت، وصفق لك سليمان، بلغت إلى أن تتخذ مجلسا
لنفسك؟! ارجع إلى مجلسك. X³⁹

يحيى بن سعيد: حين يسأل الشيخ تلميذه

وبين شيوخه يحيى بن سعيد الأنصاري، قاضي المدينة وعالمها. وقد
روى الفسوي عن ابن وهب عن مالك:

٣٧ — الفسوي، المعرفة والتاريخ 1/683؛ ونحوه في الجرح والتعديل (التقدمة)
1/24.

٣٨ — السير 6/91، عن مطرف.

٣٩ — السير 8/77، عن الزبير بن بكار.

قال لي يحيى بن سعيد: اكتب لي مائة حديث من حديث ابن شهاب أنقأها له، وأعطاني رقا قديما قد اصفر. قال: أراه كان عنده وهو شاب. قال: فكتبت له تلك الأحاديث حتى ملأته وبينته له. قال مالك: رجل كنت أتعلم منه ما مات حتى كان يجيئني فيستفتيني. ^{X40}

كان يحيى شيخاً لمالك، ثم صار يطلب منه أن ينتقي له من حديث ابن شهاب ويستفتيه. بقي اسم الشيخ في حديث تلميذه، وبقي ما بينهما من أخذ وعطاء؛ تتغير منزلة الطالب، ويظل في علمه أثر من جلس إليهم.

عَمَّنْ يُؤْخَذُ الْعِلْمُ؟

وفي خضم هذا التلقي الواسع، لم يكن مالك يأخذ عن كل من حدث. سمع من شيوخ كثيرين، وترك شيوخاً كثيرين. روى ابن عبد البر بإسناده عن ابن أبي أويس:

سمعت خالي مالك بن أنس يقول إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم لقد أدركت سبعين ممن يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذه الأساطين وأشار إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فما أخذت عنهم شيئاً وإن أحدهم لو أؤتمن على

بيت مال لكان أمينا إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن وقدم
علينا ابن شهاب فكا نزدحم على بابه. ^{X41}

وروى الخطيب البغدادي بإسناده عن معن بن عيسى قاعدته في
ذلك:

كان مالك بن أنس يقول: لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممن
سوى ذلك: لا تأخذ من سفيه معطن بالسفه وإن كان أروى
الناس، ولا تأخذ من كذاب يكذب في أحاديث الناس إذا جرب
ذلك عليه، وإن كان لا يتهم أن يكذب على رسول الله صلى الله
عليه وسلم، ولا من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه، ولا من
شيخ له فضل وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحدث. قال إبراهيم
بن المنذر: فذكرت هذا الحديث لمطرف بن عبد الله اليساري مولى
زيد بن أسلم فقال: ما أدري ما هذا، ولكن أشهد لسمعت مالك
بن أنس يقول: لقد أدركت بهذا البلد يعني المدينة مشيخة لهم
فضل وصلاح وعبادة يحدثون ما سمعت من واحد منهم حديثا

قط، قيل: ولم يا أبا عبد الله؟ قال: لم يكونوا يعرفون ما يحدثون.⁴²

X

وصفهم مالك بالأمانة، ثم قال إنهم لا يعرفون ما يحدثون. بذلك نفهم كيف كان يثني على الرجل ويتوقف عن حمل حديثه في الوقت نفسه: للرواية علم يحتاج إليه الصالح كما يحتاج إليه غيره. ومن هذه المواقف يتبين بعض الجهد الذي سبق الكتاب الذي سيحمله الناس عنه.

وصار كتابه شاهداً على اختياره. روى ابن أبي حاتم عن بشر بن عمر: «وسألته يعني مالكا عن رجل أخرج اسمه فقال: هل رأيته في كتيبي قلت: لا، قال لو كان ثقة رأيته في كتيبي».⁴³ وقال سفيان بن عيينة، فيما رواه علي بن المديني عنه: «ما كان أشد انتقاد مالك للرجال وأعلمه بشأنهم».⁴⁴

٤٢ — الخطيب، الجامع لأخلاق الراوي 1/139-140، رقم 168؛ ونحوه في الانتقاء ص 15-16.

٤٣ — الجرح والتعديل (التقدمة) 1/23-24.

٤٤ — الجرح والتعديل 8/204.

الفصل الخامس — لا يجلس حتى يؤذن له

سبعون شاهداً

انتهت أعوام الإصغاء إلى سؤال آخر: متى يجلس مالك للناس؟ راجع أهل العلم في أهليته، وبقي ينتظر شهادتهم. وفي خبر خلف بن عمرو يبين بنفسه كيف بدأ المجلس.

سمعت مالك بن أنس، يقول: ما أجبت في الفتيا حتى سألت من هو أعلم مني: هل يراني موضعاً لذلك؟ سألت ربيعة وسألت يحيى بن سعيد فأمراني بذلك، فقلت له: يا أبا عبد الله فلو نهوك، قال: كنت أنتهي لا ينبغي لرجل أن يرى نفسه أهلاً لشيء حتى يسأل من هو أعلم منه.⁴⁵

وروى أبو نعيم أيضاً عن أبي مصعب الزهري، راوي الموطأ: «سمعت مالك بن أنس، يقول: ما أفيتت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك».⁴⁶

وذكر القاضي عياض، بلا إسناد، أن رجلاً جاء يسأل مالكا عن مسألة فبادر ابن القاسم فأفتاه، «فأقبل عليه مالك كالمغضب وقال

٤٥ — حلية الأولياء 6/316-317؛ والفتاوى والمتفق 2/325-326.

٤٦ — حلية الأولياء 6/316.

له: جسرت على أن تفتي يا عبد الرحمن؟ يكررها عليه، ما أفتيت حتى سألت هل أنا للفتيا موضع». ⁴⁷ وهو موافق في معناه لما ثبت عنه مسنداً، وإن اختلف فيه اسم من سألوه.

الغلام الأصبحي

وكانت له حلقة وهو شاب. قال شعبة: «أتيت المدينة بعد موت نافع بسنة فإذا الحلقة لمالك بن أنس». ⁴⁸ وروى حماد بن زيد عن أيوب: «لقد كانت له حلقة في حياة نافع». ⁴⁹ والمشهور أن نافعاً مات سنة سبع عشرة ومئة؛ فيكون عمر مالك نحو أربع وعشرين سنة إن كان مولده سنة ثلاث وتسعين.

وحين سأل ابن لهيعة قادماً من المدينة، روى ابن أبي حاتم عنه: «[قدم] علينا بكر بن سودة فقلت له: من خلفت لعلم أهل الحجاز؟ قال: غلام من ذي أصبح، يعني مالك بن أنس». ⁵⁰ وفي رواية الفسوي عن ابن لهيعة أن القادم أبو الأسود، وأنهم سألوه: «فمن

٤٧ - ترتيب المدارك 1/142.

٤٨ - حلية الأولياء 6/318.

٤٩ - الانتقاء ص 22.

٥٠ - الجرح والتعديل (التقدمة) 1/11.

يعدونه للفتيا بعد ربيعة؟ قالوا: شاب من ذي أصبح يقال له مالك بن أنس».⁵¹

كان شاباً حين عرف القادمون إلى المدينة حلقتة. لا تحدد هذه الأخبار متى انتهت كل ملازمة من ملازماته، لكنها تجمع لنا مشهدين من طريقه: طالب يسأل شيوخه عن أهليته، ومعلم يجلس إليه الناس وهو في أول عمره.

وظل التوقف حاضراً بعد جلوسه للفتوى. قال سعيد بن سليمان: «قلها سمعت مالكا، يفتي بشيء إلا تلا هذه الآية: {إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين}».⁵² وشهد الهيثم بن جميل مجلساً سئل فيه عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري.⁵³

جاءته أسئلة كثيرة، وتوقف في أكثرها كما حفظ الراوي عن ذلك المجلس. خرج الناس بما عرفه، وبما قال إنه لا يحسنه. لم تجر كثرة القادمين على لسانه أجوبة لا يطمئن إليها.

٥١ - الفسوي، المعرفة والتاريخ 1/682.

٥٢ - حلية الأولياء 6/323.

٥٣ - الانتقاء ص 38.

الباب الثاني — المشروع وهو يعمل

الفصل السادس — حديث رسول الله لا يؤخذ قائماً

الهيئة قبل الكلمة

إذا أراد الحديث تهيأ له. كان لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عنده حرمة تظهر في مجلسه وهيئته، وحفظ ابن أبي أويس، ابن أخته، ما رآه من ذلك.

كان مالك إذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على فراشه وسرح لحيته وتمكن في الجلوس بوقار وهيبة، ثم حدث فقليل له في ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحدث به إلا على طهارة متمكناً، وكان يكره أن يحدث في الطريق وهو قائم أو يستعجل، فقال: أحب أن أفهم ما أحدث به، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.⁵⁴ X

وروى الخطيب البغدادي بإسناده عن معن بن عيسى:

كان مالك بن أنس إذا أراد أن يجلس للحديث اغتسل، وتجر، وتطيب، فإن رفع أحد صوته في مجلسه زره، وقال: قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي} فمن رفع

صوته عند حديث رسول الله فكأنما رفع صوته فوق صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم.⁵⁵ X

يتيهاً مالك للتحديث، ثم يبين بنفسه ما أراد بهذه الهيئة من تعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتفهم له. فحين يدخل القارئ مجلسه بعد ذلك، يعرف شيئاً مما كان يعنيه هذا الجلوس لصاحبه: أمانة يؤديها، ويأخذ لها من نفسه ووقته.

وتزيد بعض كتب المناقب تفاصيل في المنصة والثياب والبخور، أوردها عياض بلا إسناد.⁵⁶ لا نلحقها بالأخبار السابقة على مرتبة واحدة من الثبوت.

في الطريق

ومن تعظيمه للحديث أنه كان يأبى أن يحدث به ماشياً أو قائماً. روى الخطيب بإسناده عن عبد الرحمن بن مهدي: سألت مالك بن أنس عن حديث وأنا أصحبه في الطريق فقال: هذا حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكره أن أحدثك

٥٥ — الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 1/406، رقم 961.

٥٦ — ترتيب المدارك 2/14-15.

ونحن نستطرق الطريق، فإن شئت أن أجلس وأحدثك به فعلت، وإن شئت أن تصحبني إلى منزلي وأحدثك به فعلت، قال: فصحبته إلى منزله فجلس وتمكن ثم حدثني به.⁵⁷ X

وهذا الأدب تعلمه مالك طالباً قبل أن يعلمه شيخاً. روى الحارث بن مسكين عن ابن القاسم: «قيل لمالك: لم لم تأخذ عن عمرو بن دينار؟ قال: أتيت، فوجدته يأخذون عنه قياماً، فأجلت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن آخذه قائماً».⁵⁸ وروى أبو نعيم بإسناده عن إبراهيم بن عبد الله بن قريم قاضي المدينة: «مر مالك بن أنس على أبي حازم وهو يحدث فجازه فقبل له فقال: إني لم أجد موضعاً أجلس فيه فكرهت أن آخذ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا قائم».⁵⁹

وأما خبر العقرب التي لدغته ست عشرة مرة وهو يحدث فلم يقطع الحديث، فقد ذكره القاضي عياض عن ابن المبارك بلا

٥٧ - الجامع لأخلاق الراوي 1/408، رقم 970.

٥٨ - السير 8/67؛ ونحوه مسنداً في الجامع لأخلاق الراوي 1/408، رقم 969.

٥٩ - حلية الأولياء 6/317-318.

إسناد، ولم نجده في الكتب المسندة التي بين أيدينا؛ فنذكره على أنه من حكايات المناقب، لا من الأخبار الثابتة.⁶⁰

الحرف الواحد

ولم يقف تعظيمه عند الهيئة؛ بلغ اللفظ نفسه. روى أبو نعيم بإسناده عن معن بن عيسى: «كان مالك بن أنس يتقي في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الباء والتاء ونحوهما».⁶¹ وروى ابن عبد البر بإسناده عن الربيع بن سليمان: «سمعت الشافعي يقول كان مالك بن أنس إذا شك في الحديث طرحه كله».⁶² تعاهد اللفظ، وترك ما شك فيه. حفظت الشهادتان هذه العناية في موضعين، وبقي للمراجعة عمل بعد الحفظ.

٦٠ - ترتيب المدارك 2/16.

٦١ - حلية الأولياء 6/318.

٦٢ - الانتقاء ص 23.

الفصل السابع — مجلس لا لفظ فيه

كما وصفه من رآه

وصف الواقدي مجلسه، وفي روايته ضعف. تبقى شهادته مما روي عن هيئة المجلس، وتأتي معها أخبار أخرى من جلساء مالك. وكان مالك يجلس في منزله على ضجاع له ونمارق مطرحة يمنة ويسرة في سائر البيت، لمن يأتيه من قرش والأنصار والناس، وكان مجلسه مجلس وقار وحلم، وكان مالك رجلاً مهيباً نبيلاً ليس في مجلسه شيء من المراء واللغط ولا رفع صوت وكان الغرباء يسألونه عن الحديث، ولا يجيب إلا الحديث بعد الحديث، وربما أذن لبعضهم فقرأ عليه، وكان له كاتب قد نسخ كتبه يقال له: حبيب يقرأ للجماعة، فليس أحد ممن يحضره يدنو ولا ينظر في كتابه ولا يستفهم هيبة لمالك وإجلاله، وكان حبيب إذا قرأ فأخطأ فتح عليه مالك. وكان ذلك قليلاً.⁶³ X

ويصفه قتبية بن سعيد، وهو ممن رحل إليه وروى عنه الموطأ: «كنا إذا دخلنا على مالك، خرج إلينا مزينا، مكحلاً، مطيباً، قد لبس

٦٣ — ابن سعد، الطبقات الكبرى، القسم المتمم لتابعي أهل المدينة، ص 442-

من أحسن ثيابه، وتصدر الحلقة، ودعا بالمرآح، فأعطى لكل منا مروحة».⁶⁴

وبين أخبار الهيبة يلفتنا هذا التفصيل: يدعو بالمرآح ويعطي القادمين منها. يقترب المجلس في مثل هذه الأخبار من حياة أهله؛ فيهم من يقرأ، ومن يصحح، ومن يحتاج إلى ما يخفف عنه الحر. ومن هذه الجزئيات نعرف الشيخ إلى جانب ما قيل في منزلته.

وقد شهد بهذه الهيبة من لا يُتهم في الشاء. ذكر القاضي عياض عن الشافعي قوله: «ما هبت أحدا قط هييتي مالك بن أنس حين نظرت إليه»؛ ونقل الذهبي عن ابن مهدي: «ما رأيت أحدا أهيب، ولا أتم عقلا من مالك، ولا أشد تقوى»؛ وكلاهما بلا إسناد في موضعه، ويشهد لهما ما رواه ابن عبد البر بإسناده عن ابن مهدي: «ما رأيت أحدا أعقل من مالك بن أنس».⁶⁵

٦٤ — السير 8/64، عن السراج عن قتيبة.

٦٥ — ترتيب المدارك 2/34؛ السير 8/113؛ الانتقاء ص 28-29.

لماذا لا يجيب كل سائل؟

ومن هيبة المجلس أنه كان لا يجيب عن كل ما يُسأل. روى الخطيب بإسناده عن ابن القاسم أو ابن وهب عن مالك قوله: «إن من إذالة العالم أن يجيب كل من كلمه، أو يجيب كل من سأل»، ثم روى عن محمد بن صدقة: «جاء رجل إلى مالك، فسأله عن مسألة، فلم يجبه، فقال له: يا أبا عبد الله، ألا تجيبني عما أسألك عنه؟ فقال له مالك: لو سألت عما تنتفع به، أو قال: تحتاج إليه في دينك أجبتك».⁶⁶

وقد قال فيه عبد الرحمن بن مهدي، إمام النقد في عصره، كلمة تلخص ما صنعه هذا الأدب كله. روى أبو نعيم بإسناده عن نعيم بن حماد: «سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول ما بقي على وجه الأرض أحد آمن على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من مالك بن أنس».⁶⁷

اختار الشيوخ، وتعاهد الألفاظ، وتوقف عند الأسئلة. في هذه الأعمال يعرف معنى الأمانة التي وصفه بها ابن مهدي. ثم يجتمع من السماع والنظر والمراجعة كتاب سيحمله الناس إلى الآفاق.

٦٦ - الخطيب، الفقيه والمتفقه 2/418.

٦٧ - حلية الأولياء 6/318.

الفصل الثامن — الموطأ: أعوام من الجمع والمراجعة

كيف بدأ؟

كانت في المدينة كتب جمع أصحابها الحديث والفقهاء. يبدأ الموطأ داخل هذا العمل العلمي، ثم يطول تعاقد مالك لما يضعه فيه، حتى يصير كتابه هو الذي تحمله الأجيال.

أول من عمل كتاباً بالمدينة على معنى الموطأ من ذكر ما اجتمع عليه أهل المدينة عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون، وعمل ذلك كلاماً بغير حديث. قال القاضي: ورأيت أنا بعض ذلك الكتاب وسمعته ممن حدثني به، وفي موطأ ابن وهب منه عن عبد العزيز غير شيء. قال: فأتي به مالك فنظر فيه فقال: ما أحسن ما عمل، ولو كنت أنا الذي عملت لبدأت بالآثار ثم شددت ذلك بالكلام. قال: ثم إن مالكا عزم على تصنيف الموطأ فصنفه.⁶⁸ X

٦٨ — ابن عبد البر، التمهيد 1/86، بإسناده عن الفضل بن محمد بن حرب المدني؛ ونحوه عند عياض، ترتيب المدارك 2/75-76 بلا إسناد. في المطبوع: «كلا ما يغير حديث» و«الذي علمت»، والمثبت على وفق لفظ عياض: «كلاماً بغير حديث»، «عملت».

بدأ مالك من ترتيب ما يكتب: آثار تتقدم، وكلام يبينها ويشد بعضها إلى بعض. وفي عبارته نظر إلى صناعة الكتاب من داخله؛ من أين يبدأ قارئه، وعلى أي أصل يبني فهمه؟ وسنجد في الموطأ حديثاً وأثراً وفقهاً، حملها عنه الرواة في كتاب واحد.

الخليفة الذي أراد كتاباً واحداً

وتربط رواية أخرى بداية التصنيف بطلب من أبي جعفر المنصور. روى خالد بن نزار:

بعث أبو جعفر إلى مالك حين قدم، فقال له: إن الناس قد اختلفوا بالعراق، فضع للناس كتاباً تجمعهم عليه. فوضع الموطأ.⁶⁹ X أما حمل الناس على الكتاب بعد تأليفه فورد فيه خبر آخر. رواه الواقدي عن مالك، والواقدي ضعيف في الرواية، وجاء أصل الطلب في طرق أخرى ستأتي:

أخبرنا محمد بن عمر، قال: سمعت مالك بن أنس يقول: لما حج أبو جعفر المنصور دعاني، فدخلت عليه فحادثته، وسألني فأجبته، فقال: إني قد عزمت أن أمر بكتبك هذه التي وضعتها — يعني

٦٩ — ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (التقدمة) 1/12، عن يونس بن عبد الأعلى

عن خالد بن نزار، ونقله الذهبي، السير 8/111.

الموطأ - فتنسخ نسخا، ثم أبعث إلى كل مصر من الأمصار المسلمين منها بنسخة، وأمرهم أن يعملوا بما فيها لا يتعدوه إلى غيره، ويدعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث، فإني رأيت أصل العلم رواية المدينة وعلمهم. قال فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وعملوا به، ودانوا به من اختلاف الناس وغيرهم، وإن ردهم عما قد اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار كل أهل بلد منهم لأنفسهم. فقال: لعمرى لو طاوعتني على ذلك لأمرت به. ⁷⁰X

ويشهد له ما رواه الزبير بن بكار عن اثنين من أصحاب مالك: «سمعنا مالكا يذكر دخوله على أبي جعفر وقوله في انتساخ كتبه في العلم وحمل الناس عليها، قال مالك: فقلت له: يا أمير المؤمنين، قد

٧٠ - ابن سعد، الطبقات الكبرى، القسم المتمم لتابعي أهل المدينة، ص 440-441؛ ورواه عنه ابن عبد البر، الانتقاء ص 41، والذهبي، السير 8/78-79. «من الأمصار المسلمين» كذا في المطبوع، وفي الانتقاء والسير: «من أمصار المسلمين»؛ وعندهما: «من اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم» بدل «من اختلاف الناس وغيرهم».

رسخ في قلوب أهل كل بلد ما اعتقدوه وعملوا به، ورد العامة عن مثل هذا عسير».⁷¹

أمام هذا العرض استحضر مالك ما سبق إلى الناس من العلم في بلادهم. قد يقرأ الرجل كتابه فينتفع به، أما أن يحمل عليه أهل الأمصار جميعاً فشيء آخر. كانت حجته في الجواب متصلة بتاريخ التلقي: أقوال عرفها الناس، وآثار أخذوا بها، وصعوبة ردهم عما استقر عندهم.

وفي رواية أبي خلود عن مالك تفصيل أطول لكلام المنصور وجوابه، يرد فيه ذكر انتشار الصحابة معلمين في البلاد وبقاء ما تلقاه الناس عنهم:

قال لي أبو جعفر يوماً: أعلى ظهرها أحد أعلم منك؟ قلت: بلى. قال: فسمهم لي. قلت: لا أحفظ أسماءهم. قال: قد طلبت هذا الشأن في زمن بني أمية فقد عرفته، أما أهل العراق فأهل كذب وباطل وزور، وأما أهل الشام فأهل جهاد وليس عندهم كبير علم، وأما أهل الحجاز ففهم بقية علم وأنت عالم الحجاز، فلا تردن على أمير المؤمنين قوله. قال مالك: ثم قال لي: قد أردت أن أجعل هذا العلم علماً واحداً فأكتب به إلى أمراء الأجناد وإلى القضاة

فيعملون به، فمن خالف ضربت عنقه. فقلت له: يا أمير المؤمنين، أو غير ذلك؟ قلت: إن النبي صلى الله عليه وسلم كان في هذه الأمة وكان يبعث السرايا وكان يخرج فلم يفتح من البلاد كثيرا حتى قبضه الله عز وجل، ثم قام أبو بكر رضي الله عنه بعده فلم يفتح من البلاد كثيرا، ثم قام عمر رضي الله عنه بعدهما ففتحت البلاد على يديه فلم يجد بدا من أن يبعث أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم معلمين، فلم يزل يؤخذ عنهم كبرا عن كابر إلى يومهم هذا، فإن ذهبت تحولهم مما يعرفون إلى ما لا يعرفون رأوا ذلك كفرا، ولكن أقر أهل كل بلدة على ما فيها من العلم، وخذ هذا العلم لنفسك. فقال لي: ما أبعدت القول، اكتب هذا العلم لمحمد.⁷²

في هذا الطريق من الخبر اقترن حمل الناس على الكتاب بوعيد شديد. ويرد مالك النظر إلى الصحابة الذين تفرقوا معلمين، وإلى ما أخذه أهل البلاد عنهم. وتبقى ألفاظ هذا الطريق وتفاصيله خاضعة لما في توثيقه، كما تبقى روايات العرض الأخرى بألفاظها؛ فلا نركب منها مجلساً واحداً.

٧٢ — الجرح والتعديل (التقدمة) 1/28-29، عن أبي خنبل عتبة بن حماد عن مالك؛ واختصره عياض في ترتيب المدارك 2/72 بلا إسناد.

أي خليفة؟ وماذا عن الكعبة؟

واشتهر مع هذا الخبر ذكر تعليق الموطأ في الكعبة وكتابه بماء الذهب. لكن تفاصيل الروايات وأسماء الخلفاء فيها ليست متفقة. أقدم الطرق — الواقدي، وخالد بن نزار، والزبير بن بكار، وأبو خليل — كلها تجعل الخليفة أبا جعفر المنصور، وتجعل الطلب نسخ الكتاب وحمل الناس عليه، وليس فيها تعليق في الكعبة. وفي طريق أخرى يرويها الطبري عن إبراهيم بن حماد عن مالك: «قال لي المهدي: ضع لي كتاباً أحمل الأمة عليه، فقلت له: يا أمير المؤمنين، أما هذا السقع — وأشار إلى المغرب — فقد كفيته، وأما الشام ففهم الرجل الذي علمته، يعني الأوزاعي، وأما أهل العراق فهم أهل العراق». وقد نبّه الطبري نفسه على الاختلاف فقال: «هكذا حدثني به العباس بن الوليد عن إبراهيم بن حماد، وأما محمد بن عمر فذكر هذه القصة عن مالك على خلاف ذلك».⁷³

وأما تعليق الموطأ في الكعبة فأسنده أبو نعيم عن عبد الله بن عبد الحكم عن مالك: «شاورني هارون الرشيد في ثلاث: في أن يعلق الموطأ في الكعبة ويحمل الناس على ما فيه، وفي أن ينقض منبر النبي صلى الله عليه وسلم ويجعله من جوهر وذهب وفضة، وفي أن

يقدم نافع بن أبي نعيم إماما يصلي في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلت: يا أمير المؤمنين، أما تعليق الموطأ في الكعبة فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا في الفروع وتفرقوا في الآفاق وكل عند نفسه مصيب...». لكن الذهبي، بعد أن ساقه، قال: «هذا إسناد حسن، لكن لعل الراوي وهم في قوله: هارون؛ لأن نافعا قبل خلافة هارون مات».⁷⁴ وفي رواية أخرى عند أبي نعيم عن أبي مسهر أن الذي قال «عزمت أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان الناس على القرآن» هو «المأمون»، وهو لم يكن خليفة في حياة مالك.⁷⁵ ونسبة الكعبة وماء الذهب إلى المنصور إنما جاءت عند القاضي عياض بلا إسناد.⁷⁶

٧٤ — أبو نعيم، حلية الأولياء 6/332؛ وتعقب الذهبي في السير 8/98.

٧٥ — حلية الأولياء 6/331، عن أبي مسهر. وذكر عياض (ترتيب المدارك 2/89) أن الرشيد وبنه الأمين والمأمون والمؤتمن أخذوا عنه الموطأ؛ فلعل المراد المأمون قبل الخلافة، أو هو وهم في الاسم.

٧٦ — ترتيب المدارك 2/71-72 («وقال أبو مصعب: سمعت مالكا يقول...» بلا إسناد عياض إليه)؛ وجعله عياض في موضع آخر (2/105) عن المهدي بلا ذكر الموطأ.

تكرر في الأخبار طلب جمع الناس على الموطأ، وحفظت امتناع مالك وتعليه بتفرق العلم في البلاد. أما تفاصيل الخليفة والكعبة فتختلف طرقها؛ ويبقى في موقفه تقدير لما حمّله أهل الأمصار من علم.

«ما في الأرض كتابٌ أكثر صواباً»

وقد حكم على الكتاب أهله. روى ابن أبي حاتم عن يونس بن عبد الأعلى: «قال الشافعي: ما في الأرض كتاب من العلم أكثر صواباً من موطأ مالك».⁷⁷ وفي لفظ آخر عنه بإسناد ابن عبد البر: «ما كتاب أكثر صواباً بعد كتاب الله من كتاب مالك، يعني الموطأ».⁷⁸ وقال عبد الرحمن بن مهدي: «ما كتاب بعد كتاب الله أنفع للناس من الموطأ، أو كلام هذا معناه»، وقال ابن وهب: «من كتب موطأ مالك فلا عليه أن لا يكتب من الحلال والحرام شيئاً».⁷⁹

٧٧ — الجرح والتعديل (التقدمة) 1/12.

٧٨ — التمهيد 1/76، عن هارون بن سعيد الأيلي؛ وبألفاظ متقاربة 1/77 و 1/78-
79؛ والاستدكار 1/12.

٧٩ — التمهيد 1/78؛ والاستدكار 1/12-13.

وسئل أحمد بن حنبل عن كتاب مالك فقال: «ما أحسنه لمن تدين به»⁸⁰.

لكن الذهبي، وهو يسوق كلمة الشافعي، قيدها بكلمة لا بد منها: «قلت: هذا قاله قبل أن يؤلف الصحيحان»⁸¹. والقارئ قد يسمع اللفظ الأشهر: «ما بعد كتاب الله أصح من موطأ مالك»، وهذا اللفظ إنما جاء عند عياض بلا إسناد؛ أما الألفاظ المسندة عن تلاميذ الشافعي فهي: «أكثر صواباً» و«أنفع»⁸².

حفظ الناقلون الشاء بلفظه: «أكثر صواباً». ولفظ مكانه في فهم الشهادة؛ فلا نستبدل به حكماً تفصيلاً على صحة جميع أسانيد الكتاب. نقرأ ما قاله الشافعي في زمنه، ثم نتابع كيف تلقى الناس الموطأ وكيف اختلفت رواياتهم له.

أربعون سنة في أربعين يوماً

ولم يكن الموطأ كتاباً كُتب مرة واحدة. روى ابن عبد البر بإسناده عن عمر بن عبد الواحد صاحب الأوزاعي: «عرضنا على

٨٠ — حلية الأولياء 6/322، عن أبي عمار.

٨١ — السير 8/111.

٨٢ — ترتيب المدارك 2/70؛ وقارن التمهيد 1/76-79 والجرح 1/12.

مالك الموطأ في أربعين يوماً، فقال: كتاب ألفته في أربعين سنة أخذتموه في أربعين يوماً، قلها تفقهون فيه».⁸³ وروى أبو نعيم عن أبي خليل: «أقمت على مالك فقرأت الموطأ في أربعة أيام، فقال مالك: علم جمعه شيخ في ستين سنة أخذتموه في أربعة أيام، لا فقهتم أبداً».⁸⁴

في الخبر مسافة بين زمن تأليف الكتاب وزمن قراءته. يتلقى الطالب الصفحات في أيام، وقد يكون وراء اختيارها وترتيبها عمل طويل لا يراه في الورق. تبقى الحكاية بدرجة طريقتها، ويبقى معها سؤال المتعلم: كم فهم مما قرأ، وكم يحتاج أن يعود إليه؟ وذكر عياض أخباراً عن تنقيح مالك الموطأ وإسقاطه منه، بأعداد مختلفة لما كان فيه أولاً. أوردها بلا إسناد، فلا نعتمد أرقامها.⁸⁵ أما طول اشتغاله بالكتاب فمذكور في الأخبار السابقة، واختلاف رواياته معلوم في نسخ ناقله.

٨٣ — التمهيد 1/77-78، عن عمر بن عبد الواحد صاحب الأوزاعي؛ والاستذكار 1/13. في المطبوع: «الوطأ».

٨٤ — حلية الأولياء 6/331.

٨٥ — ترتيب المدارك 2/73، بلا إسناد؛ ونحوه في الديباج المذهب 1/119.

ما الذي في الكتاب؟

يجد القارئ في الموطأ حديث النبي صلى الله عليه وسلم، وأقوال الصحابة والتابعين، وعبارات مثل «الأمر المجتمع عليه عندنا»، واجتهاداً يذكره مالك. ونقل عياض وصفاً قريباً من هذا عن مالك في جوابه للخليفة، لكن بإسناد غير تام.⁸⁶

وذكر عياض عن ابن أبي أويس تفسيراً لهذه العبارات. طريق النص غير تام، ولذلك نقرأه بوصفه تفسيراً منقولاً يحتاج لفظه إلى تثبت:

قيل لمالك: ما قولك في الكتاب: الأمر المجتمع عليه عندنا، وبلدنا، وأدركت أهل العلم، وسمعت بعض أهل العلم؟ فقال: أما أكثر ما في الكتاب رأيي، فلعمري ما هو رأيي، ولكن سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل والأئمة المقتدى بهم الذين أخذت عنهم، وهم الذين كانوا يتقون الله، فكثرت علي فقلت: رأيي... وما كان فيه الأمر المجتمع عليه فهو ما اجتمع عليه من قول أهل الفقه والعلم لم يختلفوا فيه. وما قلت: الأمر عندنا، فهو ما عمل الناس به عندنا وجرت به الأحكام وعرفه الجاهل والعالم. كذلك ما قلت فيه: بلدنا. وما قلت فيه: بعض أهل العلم، فهو شيء استحسنته في قول

العلماء. وأما ما لم أسمعه منهم فاجتهدت ونظرت على مذهب من لقيته حتى وقع ذلك موضع الحق أو قريب منه، حتى لا يخرج عن مذهب أهل المدينة وآرائهم، وإن لم أسمع ذلك بعينه، فنسبت الرأي إلي بعد الاجتهاد.⁸⁷ X

يفرق النص بين ما ينقل عن أهل العلم، وما جرى به العمل، وما يجتهد فيه صاحبه. وسنقرأ قول مالك في مكانة عمل المدينة في رسالته إلى الليث، ونقرأ جواب الليث أيضاً.

وكان مالك يرى الكثرة في غير موضعها آفة. روى ابن سعد عن مطرف بن عبد الله: «قال رجل لمالك: قد سمعت مائة ألف حديث. فقال مالك: مائة ألف حديث! أنت حاطب ليل تجمع القشعة. فقال: ما القشعة؟ قال: الحطب يجمعه الإنسان بالليل، فربما أخذ معه أفعى فتنهشه».⁸⁸

تصور كلمة حاطب الليل خطر الجمع الذي لا يميز صاحبه ما يأخذ. وهذه العناية بالاختيار تقربنا من الموطأ ومن الرجل الذي

٨٧ - ترتيب المدارك 2/74، «قال ابن أبي أويس» بلا إسناد عياض إليه؛ ونحوه في الديباج المذهب 1/119-120.

٨٨ - ابن سعد، القسم المتمم ص 439.

كان يراجع ما يحدث به؛ لم تكن كل رواية سمعها طريقاً إلى مجلسه أو إلى كتابه.

لماذا تعددت رواياته؟

ومن أخذ الموطأ اليوم وجده في روايات عدة: رواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي، ورواية محمد بن الحسن الشيباني، ورواية أبي مصعب الزهري، ورواية القعني، ورواية سويد بن سعيد، وغيرها. وقد عدّ القاضي عياض من رَوَاهُ عن مالك ثم قال: «والذي اشتهر من نسخ الموطأ مما رويته أو وقفت عليه أو كان في روايات شيوخنا أو نقل منه أصحاب اختلاف الموطآت نحو عشرين نسخة، وذكر بعضهم أنها ثلاثون نسخة».⁸⁹

وكان التلقي يجري قراءة على مالك وسماعاً منه. قال مطرف: «صحب مالك بن أنس نحواً من عشرين سنة، فلم أر أحداً قرأ مالك عليه هذه الكتب، يعني الموطأ».⁹⁰ وفي المقابل فصل معن بن عيسى ما سمعه من مالك وما عرضه عليه أو سأله عنه.⁹¹ تدل

٨٩ - ترتيب المدارك 2/89، في آخرباب من روى الموطأ عن مالك (2/86-89)؛ واختصره الذهبي في السير 8/83-85.

٩٠ - ابن سعد، القسم المتمم ص 438-439.

هذه الشهادات على اختلاف طرق الأخذ وتجدد مجالس القراءة؛ وذكر ابن فرحون أن ابن بكير سمع الموطأ أربع عشرة مرة.⁹² ويحسن ابن عبد البر، وهو أعلم الناس باختلاف هذه الروايات، تصوير الأمر: «والروايات في مرفوعات الموطأ متقاربة في النقص والزيادة، وأما اختلاف روايته في الإسناد والإرسال والقطع والاتصال فأرجو أن ترى ما يكفي ويشفي في كتابنا هذا». وبين لماذا اعتمد رواية يحيى الليثي: «لموضعه عند أهل بلدنا من الثقة والدين والفضل والعلم والفهم، ولكثرة استعمالهم لروايته وراثته عن شيوخهم وعلمائهم».⁹³ ولم يخف ابن عبد البر نفسه ما في روايته: فقد ذكر أن يحيى «رحل وهو ابن ثمان وعشرين سنة، فسمع من مالك بن أنس الموطأ غير أبواب من الاعتكاف فحملها عن زياد عن مالك»، ثم عاد إلى المدينة ليعرضه عليه «فوجد مالكا عليلا، فأقام بالمدينة إلى أن توفي مالك وحضر جنازته».⁹⁴ وقال

٩١ - الجرح والتعديل 8/278، عن إسحاق بن موسى الأنصاري عن معن؛ ونقله ابن عبد البر، الانتقاء ص 61.

٩٢ - ابن فرحون، الديباج المذهب 1/108-109، بلا إسناد.

٩٣ - التمهيد 10-1/9.

٩٤ - الانتقاء ص 58-59؛ وترتيب المدارك 3/380-381.

يحيى بن معين، فيما نقله الزرقاني عن ابن خزيمة: «أثبت الناس في الموطأ عبد الله بن مسلمة القعنبي، وعبد الله بن يوسف التنيسي بعده»؛ وذكر ابن حزم أن في رواية أبي مصعب «زيادة على سائر الموطآت نحو مائة حديث».⁹⁵

خرج الموطأ من مجلس صاحبه على أيدي رجال سمعوه في أوقات مختلفة، وحفظوا روايات تتفاوت في مواضعها. ومن هنا تبدأ عناية أخرى: مقارنة ما حمّله كل راوٍ، ومعرفة ضبطه وما انفرد به. الكتاب باقٍ، لكن الطريق إليه يمر أيضاً بالذين سمعوه وأدوه.

الموطآت الأخرى

وكان لعلماء المدينة يومئذ موطآت غير موطأ مالك. يتم ابن عبد البر الخبر السابق عن المفضل بن محمد:

فعمل من كان في المدينة يومئذ من العلماء الموطآت، فقليل لمالك: شغلت نفسك بعمل هذا الكتاب وقد شركك فيه الناس وعملوا أمثاله. فقال: ائتموني بما عملوا. فأتي بذلك فنظر فيه ثم نبذه وقال: لتعلمن أنه لا يرتفع من هذا إلا ما أريد به وجه الله. قال: فكأنما

٩٥ - الزرقاني، شرح الموطأ 1/60، نقلاً عن ابن خزيمة عن ابن معين، وعن ابن حزم؛ ولم نفتح أصلي ابن خزيمة وابن حزم.

ألقيت تلك الكتب في الآبار، وما سمع لشيء منها بعد ذلك
بذكر. ⁹⁶X

وبلغ ابن عبد البر عن مطرف بن عبد الله، صاحب مالك، أنه
قال: «قال لي مالك: ما يقول الناس في موطني؟ فقلت له: الناس
رجلان: محب مطر، وحاسد مفتر. فقال لي مالك: إن مد بك
العمر فسترى ما يراد الله به». ⁹⁷

خبر مطرف هنا بلاغ لا إسناد متصل له في الموضع المذكور. ولا
تكفي عبارة المحب والحاسد لتفسير كل نقد يوجه إلى كتاب. أما
لفظ «ما كان لله بقي» الشائع، فلا ننسبه إلى مالك بدل الألفاظ
التي وردت في المصادر المعتمدة هنا.

لماذا سُمي الموطأ؟

سئل أبو حاتم الرازي عن اسم الموطأ فقال: «شيء صنعه ووطأه
لناس حتى قيل موطأ مالك، كما قيل جامع سفیان». ⁹⁸ أما
حكاية عرضه على سبعين فقيهاً ومواطأتهم له، فالطريق المذكور لها

٩٦ — التمهيد 1/86.

٩٧ — التمهيد 1/85، بصيغة «وبلغني»؛ وعياض 2/76 بلا إسناد. وفي المطبوع
«النيسابوري»، ومطرف يساري مدني.

متأخر وفيه «سمعت بعض المشايخ»، وهو منقطع عن مالك.⁹⁹
يدل تفسير أبي حاتم على كتاب مَهْدٍ للناس، ولا يثبت من هذا
الطريق سبب التسمية الشائع.

٩٨ - الزرقاني 1/62، نقلاً عن السيوطي، عن محمد بن إبراهيم الكّاني عن أبي حاتم.
ولم نقف على مقدمة تنوير الحوالك في النسخ المفتوحة.

٩٩ - الزرقاني 1/62، عن ابن فهر عن علي بن أحمد الخليلجي: «سمعت بعض
المشايخ». لم نجده في ترتيب المدارك ولا الديباج ولا السير ولا التمهيد ولا الاستذكار ولا
الانتقاء ولا الحلية ولا الجرح ولا ابن سعد.

الفصل التاسع — حين يكون الجواب: لا أدري

ألواحٌ تملأ بـ«لا أدري»

قال ابن وهب: «لو شئت أن أملأ ألواحي من قول مالك بن أنس: لا أدري، فعلت». ¹⁰⁰ وقال خالد بن خدّاش: «قدمت على مالك من العراق بأربعين مسألة، فسألته عنها، فما أجابني منها إلا في خمس مسائل». ¹⁰¹ وإلى جانب هذه الأخبار ذكر عياض بلا إسناد أعداداً أكبر لأسئلة ابن وهب وما توقف فيه مالك. ¹⁰² تختلف الروايات، ولا يستخرج منها إحصاء عام لجميع فتاويه. حفظ التلاميذ ما أجاب عنه، وحفظوا كذلك ما توقف فيه. كان بعضهم يعد هذه الأجوبة، وبعضهم يصف كثرتها؛ فأصبحت كلمة الامتناع جزءاً مما يروى عن الشيخ. وفي الخبر التالي نسمع منه لماذا كان يحسب للجواب هذا الحساب.

١٠٠ — حلية الأولياء 6/323؛ والسير 8/108.

١٠١ — الالتقاء ص 38، بصيغة «روينا»؛ والسير 8/77.

١٠٢ — ترتيب المدارك 1/183.

لماذا؟

وسأله صديقه عمرو بن يزيد المصري عن القادمين من البلاد البعيدة، وما يلقونه من مشقة ثم يسمعون منه: لا أدري.

قلت لمالك: يا أبا عبد الله، يأتيك ناس من بلدان شتى قد أنضوا مطاياهم وأنفقوا نفقاتهم يسألونك عما جعل الله عندك من العلم، تقول: لا أدري! فقال: يا عبد الله، يأتيني الشامي من شامه، والعراقي من عراقه، والمصري من مصره، فيسألونني عن الشيء، لعلني أن يبدو لي فيه غير ما أجيب به، فأين أجدهم؟ قال عمرو: فأخبرت الليث بن سعد بقول مالك.^{X 103}

يسافر السائل، وتبقى كلمته معه. وقد يعود مالك إلى المسألة فيبدو له فيها غير جوابه الأول، فأين يجد الرجل الذي حمله إلى بلده؟ هكذا شرح بنفسه جانباً من ثقل الفتوى عليه؛ يرى أمامه سؤالاً في مجلس، ويرى وراءه عملاً سيبنى على الجواب في مكان بعيد.

وكان مالك يعرف أن السؤال الخفيف في نظر السائل ليس خفيفاً. ذكر عياض عن مصعب، بلا إسناد، أن رجلاً ذا قدر سأله فقال: «لا أدري»، فقال السائل: إنها مسألة خفيفة سهلة،

١٠٣ — حلية الأولياء 323/6-324، وذكر عياض (181-1/182) أن الليث بكى

لما بلغه.

فغضب مالك وقال: «مسألة خفيفة سهلة؟ ليس في العلم شيء خفيف، أما سمعت قول الله تعالى: {إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا}، فالعلم كله ثقیل، وبخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة». وذكر عنه أن رجلاً قال له: إذا قلت أنت يا أبا عبد الله لا أدري فمن يدري؟ فقال: «ويحك، ما عرفني؟ وما أنا؟ وأي شيء منزلي حتى أدري ما لا تدرون؟».¹⁰⁴

ميراث ابن هرمز وابن عمر

ولم يبتدع مالك هذا الأدب. رأينا في الفصل الثالث أنه حمّله عن شيخه ابن هرمز: «ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده: لا أدري». وقد جمع الخطيب البغدادي بأسانيده ما كان مالك يرويه في هذا الباب عن قبله: عن نافع عن ابن عمر قال: «العلم ثلاثة: كتاب ناطق، وسنة ماضية، ولا أدري»؛ وعن ابن عجلان: «إذا أخطأ العالم لا أدري أصيبت مقاتله»؛ وكان مالك يذكر عن ابن عباس مثله: «إذا أخطأ العالم أن يقول لا أدري فقد أصيبت

مقاتله». ¹⁰⁵ وروى عن مالك نفسه بلفظ قريب: «جنة العالم: لا أدري، إذا أغفلها أصيبت مقاتله». ¹⁰⁶

المقاتل مواضع الإصابة القاتلة؛ فالعبارة تحذر العالم من ضرر الجواب بغير علم. وذكر «لا أدري» مع الكتاب والسنة في الأثر لا يراد به قسمة العلم إلى نسب حسابية.

الفتوى ثقل

وما كان مالك يرى الفتوى إلا ثقلاً. روى الخطيب عن شيخ من قرب المدينة: «والله إن كان مالك إذا سئل عن مسألة كأنه واقف بين الجنة والنار». ¹⁰⁷ وذكر عياض عن ابن عبد الحكم، بلا إسناد: «كان مالك إذا سئل عن المسألة قال للسائل: انصرف حتى أنظر فيها. فينصرف ويتردد فيها. فقلنا له في ذلك، فبكى وقال: إني أخاف أن يكون لي من السائل يوم، وأي يوم». وذكر عنه: «ما شيء أشد علي من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام، كأن

١٠٥ — الخطيب، الفقيه والمتفقه 2/366-367.

١٠٦ — الانتقاء ص 37، عن الزبير بن بكار عن محمد بن مسلمة عن مالك، في طريق معلقة عن الدولابي، والسير 8/77.

١٠٧ — الفقيه والمتفقه 2/354، عن أبي الصلت عن «شيخ بقرب المدينة» لم يُسم.

هذا هو القطع في حكم الله. ولقد أدركت أهل العلم والفقهاء ببلدنا وإن أحدهم إذا سئل عن مسألة كأن الموت أشرف عليه. ورأيت أهل زماننا هذا يشتهون الكلام فيه والفتيا، ولو وقفوا على ما يصيرون إليه غدا لقللوا من هذا».¹⁰⁸

«إنما أنا بشر»

ومن هذا الباب كلمته التي بدأنا بها الكتاب. روى ابن عبد البر بإسناده عن معن بن عيسى:

سمعت مالك بن أنس يقول: إنما أنا بشر، أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكلما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وكلما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه.¹⁰⁹ X

واشتهرت عنه عبارة «كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم». نسبها الذهبي إليه بلا إسناد في الموضع المعتمد، وورد المعنى مسنداً عن مجاهد والحكم بن

١٠٨ — ترتيب المدارك 1/178 و 1/179، بلا إسناد.

١٠٩ — ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، رقم 1435؛ ونحوه عند عياض

1/182.

عتيبة.¹¹⁰ لذلك نعتمد في بيان موقفه لفظه السابق، ولا نسوي بين طرق هذه العبارات.

أذن مالك لتلاميذه أن ينظروا في رأيه على ضوء الكتاب والسنة، وأقر بما يعرض للبشر من الخطأ والصواب. ستبقى هذه الكلمة إلى جانب مكانته في نفوس من أخذوا عنه؛ وسنرى بعضهم يحمل كتابه ويخالفه في مسألة، فيحفظ له فضل التعليم ويقول بما ظهر له من الحجة.

«لا أدري» ليست هروباً من الدليل

ولثلا يفهم هذا الأدب على غير وجهه، فإن مالكا نفسه لم يكن يقبل أن يقال له: أرايت، بعد أن يذكر له حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. روى الخطيب بإسناده عن إسحاق بن الطباع: «جاء رجل إلى مالك فسأله عن مسألة، فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا. قال: أرايت إن كان كذا؟ قال مالك: {فليحذر

١١٠ — الذهبي، السير 8/93 («قلت: ... حيث يقول»، بلا إسناد)؛ وقول مجاهد والحكم في جامع بيان العلم، الأرقام 1761-1765، وصحح ابن عبد البر طرق مجاهد؛ والحلية 3/300. ولم نجد العبارة منسوبة إلى مالك بإسناد في ترتيب المدارك ولا الانتقاء ولا الحلية ولا الجرح ولا كتابي الخطيب ولا التمهيد.

الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب
أليم}»¹¹¹ وروى أبو نعيم بإسناده عن ضمرة: «سمعت مالكا يقول:
لو كان لي سلطان على من يفسر القرآن لضربت رأسه»، قال
الذهبي: «يعني تفسيره برأيه»¹¹².

يتوقف حيث لا يعلم، ويرد الاعتراض حيث يرى حجته. يحفظ
الحديث وينظر في دلالاته، ثم يبين وجه رأيه. وفي الرسائل مع
الليث يتسع هذا النظر إلى حوار بين المدينة ومصر.

١١١ - الفقيه والمتفقه 1/379، عن إسحاق بن الطباع.

١١٢ - حلية الأولياء 6/322، عن ضمرة؛ والسير 8/97.

الفصل العاشر — رسالتان بين المدينة ومصر

الليث بن سعد

وفي مصر الليث بن سعد، عالم يعرف مالكا ويكاتبه. يأخذ ابن وهب عن الرجلين ويذكر ما انتفع به عندهما. ستعبر الرسائل بين البلدين، تحمل السؤال عن الحال، ثم تحمل خلافاً في العلم.^{113 114} وكان بين الرجلين كتبٌ تتردد. يصف الليث في رسالته ما كان مالك يصنعه له: «وذكرت نظرك في الكتب التي بعثت بها إليك، وإقامتك إياها، وختمك عليها بخاتمك، وقد أثنتنا، فجزاك الله عما قدمت منها خيراً». فمالك كان يراجع لليث كتبه ويصححها ويختم عليها بخاتمه، ثم يردها إليه. وعلى هذه الثقة جاءت الرسالتان اللتان حفظهما يحيى بن عبد الله بن بكير، تلميذُهما، ورواهما الفسوي في «المعرفة والتاريخ»؛ وفيهما نقاش مبكر لمسألة ستبقى تُناقش في مدرسة مالك قروناً: هل عمل أهل المدينة حجةً على أهل الأمصار؟

١١٣ — ابن عبد البر، الانتقاء ص 10، عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم.

١١٤ — السير 8/111، معلقاً: «وقال ابن وهب».

كتاب مالك إلى الليث

يبدأ مالك رسالته بما يبدأ به الصديق: سلامٌ، وخبرٌ عن الأهل،
وشرح لما صنعه في كتب الليث:

سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو. أما بعد،
عصمنا الله وإياك بطاعته في السر والعلانية، وعافانا وإياك من كل
مكروه. كتبت إليك وأنا من قبلي من ولدان والأهل على ما تحب
والله محمود. جاءني كتابك تذكر من حالك ونعم الله عليك الذي
أنا به مسرور، وأسأل الله أن يستمر علينا وعليك صالح ما أنعم به
علينا وعليك وأن يجعلنا له شاكرين. وفهمت ما ذكرت في كتب
بعثت بها لأعرضها لك وأبعث بها إليك، فقد فعلت ذلك وغيرت
منها حتى صح أمرها على ما تحب، وختمت على كل فنداق منها
بخاتي ونقشه: حسبي الله ونعم الوكيل.^{X 115}

ثم يعتذر عن تأخره في النصيحة، ويدخل في الذي كتب من
أجله:

واعلم — رحمك الله — أنه بلغني أنك تفني بأشياء مخالفة لما عليه
جماعة الناس عندنا، وبلدنا الذي نحن فيه، وأنت في أمانتك
وفضلك، ومنزلتك من أهل بلدك، وحاجة من قبلك إليك،

واعتمادهم على ما جاءهم منك، حقيق بأن تخاف على نفسك، وتنبع ما ترجو النجاة باتباعه، فإن الله عز وجل يقول في كتابه: {والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم}. وقال الله عز وجل: {الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب}. وإنما الناس تبع لأهل المدينة: إليها كانت الهجرة، وبها تنزل القرآن، وأحل الحلال وحرم الحرام، إذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، يحضرون الوحي والتنزيل، ويأمرهم فيطيعونه، ويبين لهم فيتبعونه، حتى توفاه الله، واختار له ما عنده، صلوات الله وسلامه عليه ورحمته وبركاته. ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته، فما نزل بهم مما علموا أنفذوه، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه، ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا في ذلك، في اجتهدهم، وحداثة عهدهم، فإن خالفهم مخالف، أو قال امرؤ غيره ما [هو] أقوى منه وأولى، ترك قوله، وعمل بغيره. ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون ذلك السبيل ويتبعون تلك السنن، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولاً به، لم أر لأحد خلافة، للذي في أيديهم من تلك الورثة التي لا يجوز انتحالها ولا ادعائها، ولو ذهب كل أهل الأمصار يقولون: هذا العمل ببلدنا، وهو الذي مضى [عليه] من مضى منا، لم يكونوا فيه من ذلك على

ثقة، ولم يجز لهم من ذلك مثل الذي جاز لهم. فانظر - رحمك الله - فيما كتبت إليك فيه لنفسك، واعلم أنني أرجو أن لا يكون دعائي إلى ما كتبت به إليك إلا النصيحة لله وحده والنظر لك والضن بك، فأنزل كتابي منك منزله، فإنك إن تفعل تعلم أنني لم آلك نصحا. وفقنا الله وإياك لطاعته وطاعة رسوله في كل أمر، وعلى كل حال، والسلام عليك ورحمة الله. وكتب يوم الأحد لسبع مضين من صفر. ^{X116}

يرد مالك حجته إلى المدينة: إليها نزل الوحي، وفيها عمل الصحابة بما علموا وسألوا عما جهلوا، ثم أخذ التابعون عنهم. وعلى هذا الاتصال بيني مكانة ما كان ظاهراً معمولاً به عندهم. لم يسو في عبارته بين خبر أهل المدينة عن عملهم وخبر غيرهم عن عمل بلادهم؛ وهنا سيبدأ اعتراض الليث.

١١٦ - الفسوي، المعرفة والتاريخ 1/695-697. وأثبت عياض الرسالة بلا الافتتاح الشخصي في ترتيب المدارك 1/41-43 بفروق يسيرة: «إمامتك» بدل «أمانتك»، «ويسن لهم» بدل «ويبين لهم»، «لتسع مضين من صفر» بدل «لسبع». ما بين المعقوفين من المحقق.

جواب الليث

ولم يسكت الليث. كتب جواباً طويلاً، بدأه بتقدير الناصح وتفضيل علماء المدينة، ثم قال ما عنده:

وأنه بلغك أني أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم، وإني يحق علي الخوف على نفسي لاعتماد من قبلي على ما أفيتهم به، وأن الناس تبع لأهل المدينة [التي] إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن، وقد أصبت بالذي كتبت به من ذلك إن شاء الله، ووقع مني بالموقع الذي تحب، وما أعد أحدا قد ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ولا أشد تفضيلاً لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه مني، والحمد لله رب العالمين ولا شريك له. وأما ما ذكرت من مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ونزول القرآن [بها] عليه بين ظهري أصحابه وما علمهم الله منه وأن الناس صاروا به تبعاً لهم فيه، فكما ذكرت. وأما ما ذكرت من قول الله عز وجل: {والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم}، فإن كثيراً من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله، فجدوا الأجناد، واجتمع إليهم الناس، فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيهم، ولم يكتموهم شيئاً علموه، وكان في كل جند منهم طائفة يعلمون - لله -

كتاب الله وسنة نبيه، ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة، ويقوموهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم، بل كانوا يكتبون في الأمر اليسير لإقامة الدين والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فلم يتركوا أمرا فسرهم القرآن أو عمل به النبي صلى الله عليه وسلم أو أتمروا فيه بعده إلا أعلموهموه. فإذا جاء أمر عملوا به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبي بكر وعمر وعثمان [و] لم يزالوا عليه حتى قبضوا لم يأمرهم بغيره، فلا نراه يجوز للأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمرا لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم، حين ذهب العلماء وبقي منهم من لا يشبه من مضى، مع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا بعده في الفتيا في أشياء كثيرة، ولولا أني قد عرفت أن قد علمتها لكتبت بها إليك. ثم اختلف التابعون في أشياء بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، سعيد بن المسيب ونظراؤه أشد الاختلاف، ثم اختلف

الذين كانوا بعدهم، فحضرتهم بالمدينة وغيرها ورأيتهم يومئذ في
 الفتيا ابن شهاب وربيعة بن أبي عبد الرحمن.^{X¹¹⁷}
 ثم يذكر مالكا بما كان هو نفسه ينكره على ربيعة حتى فارق مجلسه،
 وبما كان يقع من ابن شهاب من اختلاف: «وإذا كاتبه بعضنا
 فربما كتب إليه في الشيء الواحد - على فضل رأيه وعلمه -
 بثلاثة أنواع ينقض بعضها بعضا، ولا يشعر بالذي مضى من رأيه
 في ذلك، فهذا الذي يدعوني إلى ترك ما أنكرت تركي إياه». ثم
 يسوق المسائل التي خالف فيها عمل المدينة واحدةً واحدةً، وأولها
 الجمع بين الصلاتين ليلة المطر:

وقد عرفت مما عبت إنكارى إياه أن يجمع أحد من أجناد المسلمين
 بين الصلاتين ليلة المطر، ومطر الشام أكثر من مطر المدينة بما لا
 يعلمه إلا الله، لم يجمع منهم إمام قط في ليلة مطر، وفيهم أبو عبيدة
 بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص
 ومعاذ بن جبل ... وشرحبيل بن حسنة وأبو الدرداء وبلال بن
 رباح، وكان أبو ذر بمصر والزيير بن العوام وسعد بن أبي وقاص،
 ويحص سبعون من أهل بدر، وبأجناد المسلمين كلها والعراق ابن

١١٧ - الفسوي، المعرفة والتاريخ 1/687-689؛ ونقل ابن القيم الرسالة بتمامها عن

الفسوي في إعلام الموقعين 3/69 وما بعدها. واختصرها عياض في ترتيب المدارك

مسعود وحذيفة بن اليمان وعمران بن الحصين، ونزلها علي بن أبي طالب سنين بمن كان معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يجمعوا بين المغرب والعشاء قط.^{X¹¹⁸}
وثانيتها القضاء بشاهدٍ ويمين، وفيها شاهدٌ من عمر بن عبد العزيز نفسه:

ومن ذلك القضاء بشهادة الشاهد ويمين صاحب الحق، وقد عرفت أنه لم يزل يقضى بالمدينة به، ولم يقض به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشام وبمحصر ولا مصر ولا العراق، ولم يكتب به إليهم الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، ثم [ولي] عمر بن عبد العزيز فكان كما علمت في إحياء السنن ... فكتب إليه زريق بن الحكم: إنك كنت تقضي بالمدينة بشهادة الشاهد الواحد ويمين صاحب الحق، وكتب إليه عمر بن عبد العزيز: إنا كنا نقضي بذلك بالمدينة، فوجدنا أهل الشام على غير ذلك، فلا نقض إلا بشهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين.^{X¹¹⁹}

١١٨ - الفسوي، المعرفة والتاريخ 1/690-691؛ وفي الموضع المحذوف حديثان في فضل معاذ ساقهما الليث بصيغة «بلغنا».

١١٩ - الفسوي، المعرفة والتاريخ 1/691-692.

ويمضي في مسائل أخرى: صداق المرأة، والإيلاء، والتملك،
وتقديم الصلاة على الخطبة في الاستسقاء، والخليطين في الزكاة،
والمفلس، وسهمان فرس الزبير؛ وفي الأخيرة يقول كلمته التي
تلخص منهجه: «فلم يكن ينبغي لك — وإن كنت سمعته من رجل
مريض — أن تخالف الأمة أجمعين». ثم يختم:

وقد تركت أشياء كثيرة من أشباه هذا، وأنا أحب توفيق الله
إياك وطول بقائك، لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة، وما
أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك، مع استئناس بمكانك، وإن
نأت الدار، فهذه منزلتك عندي ورأيي فيه فاستيقنه، ولا تترك
الكتاب إلي بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك وحاجة إن كانت
له أو لأحد يوصل بك، فإني أسر بذلك ... والسلام عليك ورحمة
الله. ¹²⁰X

أقر الليث بفضل المدينة، ثم وسع النظر إلى الصحابة الذين خرجوا
منها إلى الأمصار. أخذ أهل كل بلد عمن جاءهم، وجرت بينهم
أعمال رآها حجة فيما ذكر من مسائل. وهكذا تقابلت في الرسالتين
حجتان تحتاجان إلى تفصيل: ما الذي بقي نقلاً متصلاً في المدينة،
وما الذي حفظته البلاد عن الصحابة الذين نزلوا بها؟

١٢٠ — الفسوي، المعرفة والتاريخ 1/692-695. في المطبوع: «إذا ذهب ملك»،

والظاهر: «مثلك».

ما الذي اختلفا فيه حقاً؟

لم يقتصر الخلاف على فضل المدينة؛ امتد إلى تعيين العمل الذي يحتاج به وحدود إلزامه لغير أهلها. وذكرت كتب المدرسة عبارات لأصحاب مالك وربيعة في تقديم العمل، أوردتها عياض بلا أسانيد في مواضعها.¹²¹ أما تفصيل الحجة فيظهر في الرسالتين. لا تحفظ المصادر المعتمدة هنا جواباً لمالك على رسالة الليث. ويبقى في النصين ما نقرؤه من نصح واعتراض وتقدير، أما ما جرى بعدهما فلا تكفيها هذه الرسائل لتعيينه.

ومع طول الاختلاف، بقي الأهل والولد حاضرين في ختام الرسالة. قال الليث ما رآه، وسأل عن صاحبه ومن عنده، ودعا له. من هذه الكلمات نعرف شيئاً من أدب الرجلين وهما مختلفان؛ ثم يمتد بحث المسألة إلى من جاء بعدهما من التلاميذ.

أثر الرسالة في مدرسة مالك

ومن طريف ما يكشف أن هذه المسألة بقيت حية داخل المدرسة نفسها، أن يحيى بن يحيى الليثي — راوي الموطأ الذي عليه مدار المغاربة والأندلسيين — خالف مالكا في المسألة الثانية التي ذكرها

الليث. قال ابن عبد البر في ترجمته: «وخالف يحيى أيضا مالكا في
اليمين مع الشاهد، فلم ير القضاء به ولا الحكم، وأخذ بقول الليث
في ذلك، وقال: لا بد من شاهدين رجلين أو رجل وامرأتين»،
وذكر أنه كان لا يرى القنوت في الصبح، وأنه كان يرى كراء
الأرض بجزء مما يخرج منها «على مذهب الليث».¹²²
حمل يحيى الموطأ إلى الأندلس، واختار في هذه المسألة قول
الليث. بقي الكتاب في يده، وبقي النظر في حجته؛ من هؤلاء
التلاميذ تكون مدرسة تحفظ وتناقش.

الباب الثالث — من حمل العلم

الفصل الحادي عشر — كتابُ يسافر: تلاميذ مالك ورواة الموطأ

من المدينة إلى الآفاق

قرأ الطلاب الموطأ على مالك، ثم خرجوا به إلى بلادهم. مصر والأندلس والعراق وغيرها ستعرف الكتاب من أصوات هؤلاء الرجال. حفظ عياض أسماء منهم: ابن القاسم وابن وهب وأبو مصعب ومحمد بن الحسن ويحيى الليثي ويحيى النيسابوري والقعني وقتيبة وأسد بن الفرات وعلي بن زياد.¹²³

تتوزع هذه الأسماء بين المدينة ومصر والعراق والمغرب والأندلس وخراسان. كان كل راوٍ يصل إلى مجلس مالك وله طريق جاء منه، ثم يحمل ما أخذ إلى من وراءه. ومن أخبار هؤلاء الرجال نعرف كيف تجاوز أثر المجلس المكان الذي عقد فيه.

مصر: ابن وهب وابن القاسم

وكان في مصر أصحاب لمالك جمعوا حديثه وفقهه، منهم ابن وهب وابن القاسم وأشهب. جمع ابن عبد البر أخبارهم في «الانتقاء».¹²⁴

روى عبد الله بن وهب عن مالك والليث وابن أبي ذئب وشيوخ كثيرين. وأثنى أحمد على ضبطه فقال: «يفصل السماع من العرض والحديث من الحديث». ونقل ابن عبد البر أن مالكا كان يكتب إليه بلقب الفقيه. وتوفي سنة سبع وتسعين ومئة؛ وفي خبر وفاته أنه تأثر بقراءة كتاب الأهوال من جامعہ، ثم حمل إلى داره فبقي مريضاً حتى مات.¹²⁵

وأما عبد الرحمن بن القاسم فكان الرجل الذي صار فقه مالك على يديه كتاباً يُدرّس. وصفه ابن عبد البر: «وكان فقيهاً قد غلب عليه الرأي، وكان رجلاً صالحاً مقلداً صابراً، وروايته الموطأ عن مالك رواية صحيحة قليلة الخطأ». وروى ابن أبي حاتم عن أبي زرعة: «مصري ثقة رجل صالح، كان عنده ثلاثمائة جلد أو نحوها عن مالك من مسائل سأله عنها أسد، رجل من أهل المغرب، كان سأل عنها محمد بن الحسن، ثم قدم مصر فسأل ابن وهب أن يجيبه فيما كان عنده فيها عن مالك، وما لم يكن عنده عن مالك فيها

١٢٤ - الانتقاء ص 47.

١٢٥ - الانتقاء ص 47-50؛ قول أحمد وأبي زرعة فيه بإسناد ابن عبد البر وابن أبي حاتم، و«يقولون إن مالكا...» من كلام ابن عبد البر، وخبر وفاته بإسناد السراج عن خالد بن خداش.

قال فيها برأيه على ما ذهب إليه مالك، فلم يفعل، فأتى عبد الرحمن بن القاسم فأجابه فيها».¹²⁶

وصل أسد من العراق يحمل مسائل سأل عنها محمد بن الحسن، ثم عرضها في مصر على أصحاب مالك. اعتذر ابن وهب عن الجواب برأيه في هذا الخبر، وأجابه ابن القاسم. نحفظ لكل منهما موقفه هنا، من غير أن نجعل ابن وهب ممتنعاً من القياس في جميع فقهه، أو نختزل ابن القاسم في الجرأة على الرأي.

ومعهما أشهب بن عبد العزيز، وعبد الله بن عبد الحكم الذي «إليه أوصى ابن القاسم وأشهب وابن وهب»، و«صنف كتاباً اختصر فيه تلك الأسمعة بألفاظ مقربة، ثم اختصر من ذلك الكتاب كتاباً صغيراً»، وقال فيه أحمد بن صالح: «كتبت عن عبد الله بن عبد الحكم وكان شيخ مصر».¹²⁷

القيروان: كيف صارت مسائل ابن القاسم «المدونة»

ثم عاد أسد بن الفرات إلى القيروان بما كتبه عن ابن القاسم، وهي الكتب التي سُميت «الأسدية». وقد ذكر القاضي عياض، نقلاً

١٢٦ — الانتقاء ص 50-51؛ وخبر أبي زرعة عن ابن أبي حاتم.

١٢٧ — الانتقاء ص 51-53.

عن الشيرازي وغيره، كيف كان ابن القاسم يجيبه: «فأجابه فيما حفظ عن مالك بقوله، وفيما شك قال: أخال وأحسب وأظن، ومنها ما قال فيه: سمعته يقول في مسألة كذا وكذا ومسألتك مثله، ومنه ما قال فيه باجتهاده على أصل قول مالك». وذكر عن سليمان بن سالم أن أسداً لما وجد عند ابن القاسم ما أراد «قام في المسجد على قدميه وقال: معاشر الناس، إن كان مات مالك فهذا مالك». ¹²⁸

فلما وصلت الكتب إلى القيروان أنكرها قوم: «وقالوا: أجبنا بأخال وأظن وأحسب، وتركت الآثار وما عليه السلف؟ فقال: أما علمتم أن قول السلف هو رأي لهم وأثر لمن بعدهم؟ ولقد كنت أسأل ابن القاسم عن مسألة فيجيبني فيها، فأقول له: هو قول مالك؟ فيقول: كذا أخال وأرى، وكان وربما ورعا يكره أن يهجم على الجواب». ثم رحل سخنون بن سعيد بهذه الكتب إلى ابن القاسم، فراجعها معه، «وأسقط منها ما كان يشك فيه من قول مالك، وأجابه فيه على رأيه»، وكتب ابن القاسم إلى أسد أن يعارض كتبه على كتب سخنون «فإني رجعت عن أشياء مما رويتها عني»، فغضب أسد وترك سماعها. قال عياض نقلاً عن الشيرازي:

١٢٨ — ترتيب المدارك 3/296-297، عن الشيرازي وأبي زرعة وسليمان بن سالم، بأسانيد ناقصة.

«واقصر الناس على التفقه في كتب سخون، ونظر سخون فيها نظرا آخر فهذهها وبوبها ودونها، وألحق فيها من خلاف كبار أصحاب مالك ما اختار ذكره، وذيل أبوابها بالحديث والآثار ... فهذه هي كتب سخون المدونة ... وهي أصل المذهب المرحج روايتها على غيرها عند المغاربة».¹²⁹

وردت هذه التفاصيل عند عياض بطرق ناقصة، فيبقى قيدها ظاهراً.¹³⁰ ومنها نفهم الصورة التي نقلت عن نشأة المدونة: أسئلة جمعها أسد، وأجوبة لابن القاسم، ومراجعة وتحرير لسخون. فالكتاب الذي حمل الفقه إلى أجيال لاحقة لم يؤلفه مالك بنفسه.

الأندلس: يحيى بن يحيى الليثي

وإلى الأندلس حمل الموطأ يحيى بن يحيى الليثي، من البربر من مصمودة، رحل «وهو ابن ثمان وعشرين سنة» فسمع من مالك والليث وابن وهب وابن القاسم، ثم عاد إلى المدينة ليعرض على مالك ما كتب «فوجد مالكا عليلا، فأقام بالمدينة إلى أن توفي مالك وحضر جنازته». قال ابن عبد البر: «وقدم إلى الأندلس بعلم كثير، فدارت فتيا الأندلس بعد عيسى بن دينار عليه، وانتهى

١٢٩، ١٣٠ — ترتيب المدارك 3/297-299، عن ابن سخون وابن الحارث والشيرازي، بأسانيد ناقصة.

السلطان والعامّة إلى رأيه، وكان فقيها حسن الرأي ... وكان إمام أهل بلده والمقتدى به فيهم والمنظور إليه والمعول عليه، وكان ثقة عاقلا حسن الهدي والسمت، كان يشبه في سمته بسمت مالك بن أنس رحمه الله، ولم يكن له بصر بالحديث». وقال أحمد بن خالد: «لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الخطوة وعظم القدر وجلالة الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى».¹³¹

حمل يحيى إلى الأندلس روايته عن مالك، وحفظت ترجمته شهاً بسمته. ثم نجد عند ابن عبد البر بيان ما له وما عليه في الرواية، وما أخذه عن زياد من أبواب الموطأ. بقيت منزلته محفوظة، وبقيت تفاصيل الأخذ عنه محتاجة إلى التمييز؛ فلا تغني شهرة حامل الكتاب عن معرفة طريقه إليه.

العراق وخراسان: القعني ويحيى النيسابوري ومحمد بن الحسن

وفي البصرة سكن عبد الله بن مسلمة القعني، المدني الأصل، وقد قال فيه ابن معين لما سُئل عنه: «ذاك من در، ذاك من دنانير»، وقال أبو زرعة: «ما كتبت عن أحد أجل في عيني منه».¹³² وفي نيسابور كان يحيى بن يحيى التيمي، الذي «لم يرو مسلم الموطأ إلا

١٣١ - الاتقاء ص 58-60.

١٣٢ - الاتقاء ص 61-62، عن ابن أبي حاتم.

عنه»، وقال فيه أحمد بن حنبل: «ما أخرجت خراسان بعد ابن المبارك مثل يحيى بن يحيى، كان من ورعه يشك في الحديث كثيراً حتى سموه الشكاك».¹³³

وأخذ عن مالك إمامان صار لكل منهما مذهبٌ يُنسب إليه. فمحمد بن الحسن الشيباني، صاحب أبي حنيفة، «كتب عن مالك كثيراً من حديثه»، وله رواية مشهورة للموطأ.¹³⁴ وأما الشافعي فقد روى المزني وابن عبد الحكم خبر مجيئه إلى مالك: «جاء الشافعي إلى مالك بن أنس فقال له: إني أريد أن أسمع منك الموطأ. فقال مالك: تمضي إلى حبيب كاتبي فإنه الذي يتولى قراءته. فقال له الشافعي: تسمع مني - رضي الله عنك - صفحا، فإن استحسن قراءتي قرأته عليك وإلا تركت. فقال له: اقرأ. فقرأ صفحا ثم وقف، فقال له مالك: هيه. فقرأ صفحا ثم سكت، فقال له: هيه. فقرأ، فاستحسن مالك قراءته فقرأه عليه أجمع». وفي رواية الربيع عن الشافعي: «أتيت مالكا وقد حفظت الموطأ، فقال لي: اطلب من يقرأ لك ... فقال لي: اقرأ، فقرأت فأعجبه ذلك، وقال: اقرأ، فقرأت عليه الموطأ من أوله إلى آخره».¹³⁵

١٣٣ - الاتقاء ص 62-63، عن عبد الله بن أحمد عن أبيه.

١٣٤ - الاتقاء ص 173-174.

وقال الشافعي بعد ذلك: «مالك بن أنس معلمي وعنه أخذت العلم».¹³⁶ تبقى لهذه الكلمة حرمتها في أخبار التلميذ الذي سيخالف شيخه؛ حمل عنه علماً، ثم نظر فيما حمّله، وظل يعرف لمن علمه فضل التعليم.

المدينة بعده

وأما المدينة نفسها فلم تخلُ بعده. ذكر ابن عبد البر أن عثمان بن عيسى بن كنانة «قعد مقعد مالك بعده»، وأن «مدار الفتوى بالمدينة في آخر زمن مالك وبه» كان على المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي ومحمد بن إبراهيم بن دينار، «وكان ابن أبي حازم ثالث القوم في ذلك». وقال أحمد بن حنبل في عبد العزيز بن أبي حازم: «لم يكن بالمدينة بعد مالك أفقه منه». وروى الزبير بن بكار أن الرشيد عرض على المغيرة القضاء بالمدينة «على جائزة أربعة آلاف دينار فامتنع، فأبى الرشيد إلا أن يلزمه ذلك، فقال: والله يا أمير المؤمنين لأن يخنقني الشيطان أحب إلي من أن ألي القضاء. فقال

١٣٥ — الانتقاء ص 67-68، بإسناده عن المزني وابن عبد الحكم، وعن الربيع بن سليمان.

١٣٦ — الانتقاء ص 23، بإسناده عن الربيع بن سليمان عن الشافعي.

الرشيد: ما بعد هذا غاية، فأعفاه عن القضاء وأجازته بألفي دينار¹³⁷.

ومن ألصق الناس به معن بن عيسى القزاز، الذي «كان أشد الناس ملازمة لمالك، وكان مالك يتكئ عليه في خروجه إلى المسجد حتى قيل له: عصية مالك». وقال أبو حاتم الرازي: «أثبت أصحاب مالك وأوثقهم معن بن عيسى»¹³⁸ ومنهم أبو مصعب الزهري، راوي الموطأ، الذي «مات وهو فقيه أهل المدينة غير مدافع»¹³⁹.

في لقب «عصية مالك» قرب لا تمنحه أسماء الكتب وحدها. كان معن يتوكأ عليه شيخه في الطريق، كما كان الناس يعتمدون علي ضبطه في الرواية عنه. فصحبة العالم كانت سماعاً وخدمة، وأياماً يعرف فيها التلميذ من حال شيخه ما لا يصل كله إلى أوراقه.

١٣٧ — الانتقاء ص 53-55.

١٣٨ — الانتقاء ص 61؛ والجرح والتعديل 8/278.

١٣٩ — الانتقاء ص 62.

كتاب وطريقان

وهكذا سافر الموطأ في طريقين: طريق الرواية، يحمله القعني إلى البصرة ويحيى إلى نيسابور وقتيبة إلى خراسان، فيخرج منه البخاري ومسلم وأصحاب السنن؛ وطريق الفقه، يحمله ابن القاسم إلى مصر وأسد وسخنون إلى القيروان ويحيى الليثي إلى الأندلس، فيصير مذهباً. وبين الطريقين رجالٌ جمعوهما كابن وهب. ولم يكن مالك قد رتب شيئاً من هذا؛ كان يجلس في بيته ويُقرأ عليه الكتاب، ويقول في المسألة بعد المسألة: لا أدري.

وضع مالك الكتاب، وحمله تلاميذه إلى مدن لم يعيش فيها. قرأه عنهم من لم يره، ثم جاء من ينظر فيما نقلوه ويختلف مع بعضه. وهنا تتسع القصة إلى صلاته بالأئمة وحججهم.

الباب الرابع – الاختبارات

الفصل الثاني عشر — مالك والأئمة: أبو حنيفة والشافعي ومحمد بن الحسن

علمه شيوخ، وأخذ عنه تلاميذ، وناظره أقران. بقيت من هذه الصلوات كلمات ثناء واعتراض، يعرف منها القارئ ما قرب الرجال وما اختلفوا فيه. يدخل أبو حنيفة والشافعي ومحمد بن الحسن إلى هذه الأخبار بأقوالهم ومواضع لقاءهم.

أبو حنيفة: ما ثبت من اللقاء وما قيل

أبو حنيفة النعمان بن ثابت، ولد بالكوفة سنة ثمانين، ومات سنة نحسين ومئة، كما قال أبو نعيم الفضل بن دكين.¹⁴⁰ فهو أكبر من مالك بنحو ثلاث عشرة سنة على المشهور في مولد مالك، ومات قبله بنحو ثلاثين سنة. وقد التقى الرجلان؛ ذكر ابن عبد البر في عدّ من روى عن مالك: «وروى عنه من الأئمة سوى هؤلاء أبو حنيفة وسفيان الثوري وابن عينة»، وعدّ الذهبي أبا حنيفة في أقران مالك الذين حدثوا عنه، وساق إسناداً من طريق إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة عن أبيه عن أبي حنيفة عن مالك.¹⁴¹

١٤٠ — ابن عبد البر، الانتقاء ص 122-123، عن أبي نعيم الفضل بن دكين بإسنادين؛ وقال أبو الحسن النيسابوري: «لا اختلاف في مولده أنه ولد سنة ثمانين».

وأصرح ما بين أيدينا في نظر مالك إلى أبي حنيفة ما رواه الخطيب
البغدادى بإسناده في «ما قيل في فقه أبي حنيفة»:

أخبرنا البرقاني، قال: حدثنا أبو العباس بن حمدان لفظاً، قال:
حدثنا محمد بن أيوب، قال: أخبرنا أحمد بن الصباح، قال: سمعت
الشافعي محمد بن إدريس، قال: قيل لمالك بن أنس: هل رأيت أبا
حنيفة؟ قال: نعم، رأيت رجلاً لو كلمك في هذه السارية أن
يجعلها ذهباً لقام بحجته. ^{X 142}

مرت هذه الكلمة من مالك إلى الشافعي، فحفظ التلميذ ثناء شيخه
على قوة حجة أبي حنيفة. وهي وجه من صلة الرجلين، إلى جانب
ما ترويه المصادر من اختلافهما؛ لكل خبر موضعه، ولا يستوعب
ثناء واحد كل ما كان بين الإمامين.

١٤١ — الانتقاء ص 12؛ والسير 8/52 (في أقرانه الذين حدثوا عنه)؛ و 8/124
إسناد الحاكم: «إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة، عن أبيه، عن أبي حنيفة، عن مالك،
عن عبد الله بن الفضل، عن نافع بن جبير، عن ابن عباس».

١٤٢ — الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد 15/463 (ترجمة أبي حنيفة، «ما قيل في
فقه أبي حنيفة»)؛ وأورده الذهبي في السير 6/399 عن ابن الضريس عن أحمد بن
الصباح عن الشافعي.

وفي كتب المناقب خبران يُحكيان في هذا الباب بلا إسناد،
نذكرهما على أنهما كذلك. الأول عند القاضي عياض: «وقيل
لأبي حنيفة: كيف رأيت غلمان المدينة؟ قال: إن نجب منهم
فالأشقر الأزرق. يعني مالكا... قال ابن غانم: فذكرت ذلك لمالك،
فقال: صدق. لقيته فرأيت رجلا له علم وفهم لو بني على أصل،
يعني أثر أهل المدينة».¹⁴³ والثاني عن الليث بن سعد: «لقيت
مالكا بالمدينة فقلت له: إني أراك تمسح العرق عن جبينك. قال:
عرق مع أبي حنيفة، إنه لفقيه يا مصري. ثم لقيت أبا حنيفة
قلت: ما أحسن قول ذلك الرجل فيك. فقال: والله ما رأيت
أسرع منه بجواب صادق وزهد تام».¹⁴⁴

لم يسق عياض لهذين الخبرين إسناداً في الموضع المذكور. يتيان
من الأخبار المنقولة التي تحتاج إلى تثبيت، ولا تؤلف منهما مشهد
لقاء ثابتاً.

١٤٣ - ترتيب المدارك 1/147، بلا إسناد.

١٤٤ - ترتيب المدارك 1/152، بلا إسناد؛ في المطبوع «عزفت» والظاهر «عزقت».
وفي الموضع نفسه قول أبي يوسف: «ما رأيت أعلم من ثلاثة: مالك وابن أبي ليلى وأبي
حنيفة»، وذكره الذهبي في السير 8/94 بلا إسناد.

كلمات قاسية، وكيف قرأها ابن عبد البر

وحفظت كتب التراجم أيضاً أقوالاً شديدة في أبي حنيفة نسبت إلى بعض أئمة الحديث ومنهم مالك. عرض ابن عبد البر هذا الباب في «الانتقاء»، وقدم له بتفسيره لأسباب الخلاف:

قال أبو عمر: كثير من أهل الحديث استجازوا الطعن على أبي حنيفة لرده كثيرا من أخبار الآحاد العدول، لأنه كان يذهب في ذلك إلى عرضها على ما اجتمع عليه من الأحاديث ومعاني القرآن، فما شذ عن ذلك رده وسماه شاذاً، وكان مع ذلك أيضاً يقول: الطاعات من الصلاة وغيرها لا تسمى إيماناً، وكل من قال من أهل السنة الإيمان قول وعمل ينكرون قوله ويبدعونه بذلك، وكان مع ذلك محسوداً لفهمه وفطنته. ونذكر في هذا الكتاب من ذمه والثناء عليه ما يقف به الناظر فيه على حاله، عصمنا الله وكفانا شر الحاسدين. ¹⁴⁵X

ثم ساق ما قيل، وذكر أن مما روي عن مالك في أبي حنيفة نحو ما ذكره سفيان، ثم قال كلمة هي مفتاح الباب: «وروى ذلك

كله عن مالك أهل الحديث، وأما أصحاب مالك من أهل الرأي فلا يروون من ذلك شيئاً عن مالك».¹⁴⁶

فسر ابن عبد البر ما نقل من الخصومة وراجع طرقة. تبين الحاشية حدود الروايات، وتبقى صلة الإمامين أوسع من كلمة ثناء أو خبر طعن.

ومن الأخبار التي أوردها أبو نعيم رواية مطرف عن مالك: سمعت مالك بن أنس إذا ذكر عنده أبو حنيفة والزائغون في الدين يقول: قال عمر بن عبد العزيز: سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر بعده سننا، الأخذ بها اتباع لكاتب الله واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد من الخلق تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في شيء خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً.¹⁴⁷ X

١٤٦ - الانتقاء ص 150-151. والكلمات المنسوبة إلى مالك في أبي حنيفة جاءت أيضاً عند أبي نعيم، الحلية 6/325، بإسنادين عن عبد الله بن أحمد بن حنبل: عن منصور بن أبي مزاحم، وعن أبي معمر عن الوليد بن مسلم. نذكر الموضع ولا نعيد اللفظ.

١٤٧ - حلية الأولياء 6/324، عن الحسن بن علي الحلواني عن مطرف بن عبد الله.

صيغة «أبو حنيفة والزائغون في الدين» واردة في وصف الراوي، ثم ينقل استشهاد مالك بكلام عمر بن عبد العزيز. ينبغي أن تبقى الحدود بين وصف مطرف والنص الذي حكاه عن مالك ظاهرة؛ ولا يكفي هذا الخبر وحده لتفسير جميع أسباب الخلاف بين مدارس عصره.

وفي باب المقارنة سئل ابن مهدي: «بلغني أنك قلت مالك بن أنس أعلم من أبي حنيفة؟ فقال: ما قلته، بل أقول إنه أعلم من أستاذ أبي حنيفة - يعني حماداً». ¹⁴⁸ لم يرفض ابن مهدي المقارنة في هذا الجواب؛ بل بالغ في تفضيل مالك بنقله إلى المقارنة بشيخ أبي حنيفة. هذا حكمه المنقول، وليس ترتيباً يلزم به مؤلف الكتاب القارئ.

الشافعي: التليذ الذي قال «مالك معلبي» وكتب «اختلاف مالك»
قرأ الشافعي الموطأ على مالك، وبقي ثناؤه على شيخه محفوظاً في روايات أصحابه:

١٤٨ - الجرح والتعديل، المقدمة 1/11، عن عبد الرحمن بن عمر رسته؛ في المطبوع «مالك بن بن أنس» و«استاد». ونحوه في الانتقاء ص 29 عن عبد الله بن شويه: «سئل عبد الرحمن بن مهدي: من أعلم مالك أو أبو حنيفة؟ فقال: مالك أعلم من أستاذ أبي حنيفة، يعني حماد بن أبي سليمان».

قال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول: إذا جاءك الحديث عن مالك فشد به يدك. وسمعت الشافعي يقول: إذا جاءك الخبر فمالك النجم. ... قال يونس بن عبد الأعلى: سمعت الشافعي يقول: إذا ذكر العلماء فمالك النجم، وما أحد أمن علي من مالك بن أنس. ... قال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول: كان مالك بن أنس إذا شك في الحديث طرحه كله.¹⁴⁹ X

وعن يونس أيضاً: «سمعت الشافعي يقول: مالك وابن عيينة القرينان، ولولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز».¹⁵⁰

ثم إن هذا التليذ نفسه كتب كتاباً سماه «اختلاف مالك والشافعي»، رواه عنه الربيع، وهو اليوم في «الأم». وفيه يحاور الشافعي رجلاً من أصحاب مالك. افتتحه الربيع بسؤال الشافعي عن الأصل الذي يُثبت به الخبر، فقال الشافعي:

إذا حدث الثقة عن الثقة حتى ينتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نترك

١٤٩ — الانتقاء ص 23، بأسانيد ابن عبد البر عن الربيع بن سليمان ويونس بن عبد الأعلى؛ ونحوه في الجرح 1/14، والحلية 6/318 («إذا جاء الأثر كان مالك كالنجم»).

١٥٠ — الانتقاء ص 22، عن يونس بن عبد الأعلى؛ وفي الجرح 1/12 عن الربيع: «لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز».

لرسول الله حديثاً أبداً إلا حديثاً وجد عن رسول الله حديث يخالفه ... فقلت للشافعي: أفيزهد صاحبنا هذا المذهب؟ قال: نعم، في بعض العلم وتركه في بعض.^{X 151}

وناقش الشافعي في هذا الحوار مسائل من الفقه، واعترض على دعوى الاتفاق في مواضع رأى فيها خلافاً. ومن كلامه:

ما علمت أحداً انتحل قول أهل العلم من أهل المدينة أشد خلافاً لأهل المدينة منكم، ولو شئت أن أعد عليكم ما أملاً به ورقاً كثيراً مما خالفتم فيه كثيراً من أهل المدينة عددتها عليكم ... فقلت للشافعي: إن لنا كتاباً قد صرنا إلى اتباعه، وفيه ذكر أن الناس اجتمعوا، وفيه الأمر المجتمع عليه عندنا، وفيه الأمر عندنا. قال الشافعي: فقد أوضحنا لكم ما يدلكم على أن ادعاء الإجماع بالمدينة وفي غيرها لا يجوز أن يكون، وفي القول الذي ادعيت فيه الإجماع اختلاف، وأكثر ما قلتم الأمر المجتمع عليه مختلف فيه ... قلت: فتقول أنت أجمع الناس أن المفصل فيه سجود؟ قال: لا أقول اجتمعوا، ولكن أعزي ذلك إلى من قاله وذلك الصدق، ولا أدعي الإجماع إلا حيث لا يدفع أحد أنه إجماع.^{X 152}

١٥١ - الشافعي، الأم 7/201 (كتاب اختلاف مالك والشافعي، طبعة دار المعرفة،

بيروت 1410هـ)، برواية الربيع بن سليمان.

أثنى الشافعي على معلمه، ثم ناقش حجته وطلب تعيين من قال القول. ظلت مكانة مالك في قلب التلميذ، واتسع العلم لاختلافهما كما اتسع قبل ذلك للحوار بين المدينة ومصر.

وفي مسألة أقل الصداق نقل الشافعي عن الدراوردي قوله عن مالك: «أراه أخذه عن أبي حنيفة».¹⁵³ يبقى قوله «أراه» ظناً لا خبراً يثبت المصدر الذي أخذ منه مالك. وحفظت الروايات عن الشافعي تقديره لفقه أبي حنيفة أيضاً؛ روى حرملة عنه: «ومن أراد الفقه فهو عيال على أبي حنيفة».¹⁵⁴

محمد بن الحسن: ثلاث سنين عند مالك، وكتب في الرد على أهل المدينة قال ابن عبد البر في ترجمته: «وأما محمد بن الحسن فولد بواسط سنة خمس وثلاثين ومائة، وقيل سنة إحدى وثلاثين ومائة، وهو مولى لبني شيبان، كان فقيها عالماً، كتب عن مالك كثيراً من حديثه وعن الثوري وغيرهما، ولازم أبا حنيفة ثم أبا يوسف بعده، وهو

١٥٢ - الأم 7/282.

١٥٣ - الأم 7/282.

١٥٤ - الالتقاء ص 136، عن حرملة بن يحيى.

راوية أبي حنيفة وأبي يوسف القائم بمذهبهما».¹⁵⁵ وقد حفظ الشافعي عنه شيئاً من حديث مجلسه:

سمعت الشافعي يقول: قال محمد بن الحسن: أقيمت على مالك بن أنس ثلاث سنين وكسرا. وكان يقول: إنه سمع منه لفظاً أكثر من سبعمائة حديث. قال: وكان إذا حدثهم عن مالك امتلاً منزله وكثر الناس عليه حتى يضيق عليهم الموضع، وإذا حدث عن غير مالك لم يجئه إلا اليسير، فكان يقول: ما أعلم أحداً أسوأ ثناءً على أصحابكم منكم، إذا حدثكم عن مالك ملأتم علي الموضع، وإذا حدثكم عن أصحابكم إنما تأتونني متكارهين.¹⁵⁶ X

امتلاً مجلس محمد بن الحسن حين حدث عن مالك، ثم عاتب أصحابه على قلة عنايتهم بما يحدثهم به عن شيوخهم. يحفظ الخبر إقبال هؤلاء السامعين، ويكشف شيئاً من منزلة حديث مالك عندهم؛ وتبقى سائر البلاد والمجالس محتاجة إلى أخبارها.

١٥٥ — الانتقاء ص 174.

١٥٦ — حلية الأولياء 329/6-330، عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم عن الشافعي؛ ونحوه في الانتقاء ص 25 بإسناد ابن عبد البر عن ابن عبد الحكم، وفيه: «يعني الكوفيين».

ثم كتب محمد بن الحسن كتابه «الحجة على أهل المدينة»، ونظامه أن يذكر قول أبي حنيفة، ثم قول أهل المدينة ومالك، ثم يقول «وقال محمد بن الحسن» فيحتج. يبدأ الكتاب هكذا: «قال أبو حنيفة رضي الله عنه: ينبغي أن يسفر بالفجر لما قد جاء في ذلك من الآثار... وقال أهل المدينة ومالك: ينبغي أن يغسل بها لما جاء في ذلك من الأخبار. وقال محمد بن الحسن: قد جاء في ذلك آثار مختلفة...»¹⁵⁷ ومن أوضح مواضعه في مسألة الوضوء من الرعاف:

وقال محمد بن الحسن: وكيف قلتم هذا؟ فقد رويتم فيه الوضوء، وذكرتم أن عبد الله بن عباس كان يعرف فيخرج ويتوضأ ثم يرجع فيبني على صلاته ولم يتكلم، وذكرتم أن عبد الله بن عمر بن الخطاب كان إذا رجع انصرف وتوضأ ثم رجع فبنى على صلاته ولم يتكلم ... وقد روى هذه الأحاديث فقيهم مالك بن أنس، فكيف تركت هذه الآثار ولم تترك إلى آثار مثلها؟ ... فعجباً لمن زعم أن أهل المدينة يقولون بالآثار وهم يروونها ثم يتركونها عياناً إلى غير أثر.¹⁵⁸ X

١٥٧ - محمد بن الحسن الشيباني، الحجة على أهل المدينة 1/1 (طبعة عالم الكتب، بيروت 1403هـ، بتحقيق مهدي حسن الكيلاني)؛ في المطبوع «يغسل بها» والظاهر «يغسل بها».

١٥٨ - الحجة على أهل المدينة 1/66-68.

اعترض محمد بن الحسن هنا على ترك آثار رواها مالك من غير أثر يقابلها في نظره. وفي هذه المناقشات اقتراب من أسئلة شغلت المدارس: متى يحتاج بالخبر؟ وما العمل المعتبر؟ وكيف يفهم اختلاف الروايات؟ لكل مناظر حجته وتفصيله، فلا تدمج الأقوال كلها في اعتراض واحد.

وكما أثنى محمد بن الحسن على حديث مالك، أثنى الشافعي على محمد بن الحسن؛ قال ابن عبد البر: «وكان الشافعي رحمه الله يثني على محمد بن الحسن ويفضله، ويقول: ما رأيت قط رجلاً سمينا أعقل منه. قال: وكان أفصح الناس، كان إذا تكلم خيل إلى سامعه أن القرآن نزل بلغته. وقال الشافعي: كتبت عن محمد بن الحسن وقر بعير».¹⁵⁹

«على الإنصاف؟»

وبين الشافعي ومحمد بن الحسن جرت مناظرة في مالك وأبي حنيفة حفظها غير واحد. رواها ابن عبد البر عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم عن الشافعي:

قال لي محمد بن الحسن: صاحبنا أعلم من صاحبكم — يعني أبا حنيفة ومالكا — وما كان على صاحبكم أن يتكلم، وما كان

لصاحبنا أن يسكت. قال: فغضبت وقلت: نشدتك الله، من كان أعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، مالك أو أبو حنيفة؟ قال: مالك، لكن صاحبنا أقيس. فقلت: نعم، ومالك أعلم بكتاب الله تعالى وناسخه ومنسوخه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أبي حنيفة، فمن كان أعلم بكتاب الله وسنة رسوله كان أولى بالكلام.¹⁶⁰ X

وفي رواية يونس بن عبد الأعلى عن الشافعي صورةً لحرارة المجلس: «ذا كرت محمد بن الحسن يوماً فدار بيني وبينه كلام واختلاف حتى جعلت أنظر إلى أوداجه تدر وتنقطع أزراره». وفي رواية ابن أبي حاتم أن محمد بن الحسن سأل: «أيهما أعلم بالقرآن، صاحبنا أو صاحبكم؟» فقال الشافعي: «على الإنصاف؟ قال: نعم»، ثم أقرَّ محمد بن الحسن بأن مالكا أعلم بالقرآن والسنة وأقاويل الصحابة، فقال الشافعي: «لم يبق إلا القياس، والقياس لا يكون إلا على هذه الأشياء، فمن لم يعرف الأصول فعلى أي شيء يقيس؟»¹⁶¹

١٦٠ - الانتقاء ص 24، عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم عن الشافعي؛ ورواية

يونس بن عبد الأعلى عنه في ص 24-25.

١٦١ - الجرح والتعديل، المقدمة 12/1-13، عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم؛

ونحوه في الحلية 6/329 بلفظ: «تريد المكابرة أو الإنصاف؟ فقال: بل الإنصاف».

وتعقب الذهبي هذه المقارنة بعد ذلك فقال:

قلت: وعلى الإنصاف؟ لو قال قائل: بل هما سواء في علم الكتاب، والأول أعلم بالقياس، والثاني أعلم بالسنة، وعنده علم جم من أقوال كثير من الصحابة، كما أن الأول أعلم بأقاويل علي وابن مسعود وطائفة ممن كان بالكوفة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرضي الله عن الإمامين، فقد صرنا في وقت لا يقدر الشخص على النطق بالإنصاف، نسأل الله السلامة. ¹⁶²X

يأتي تعقيب الذهبي بعد حدة المناظرة، فيعيد النظر إلى جهات العلم التي تميز بها كل إمام، ثم يترحم عليهما. وبذلك تبقى أمامنا الحجة وقائلها، والثناء والخلاف، من غير أن تضع حياة الرجال في البحث عن اسم واحد نختم به الموازنة.

مالك وأبو يوسف عند الخليفة

وبقي من أصحاب أبي حنيفة من ناظر مالكاً نفسه. روى الذهبي عن ابن أبي حاتم بإسناده عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول: اجتمع مالك وأبو يوسف عند أمير المؤمنين، فتكلموا في الوقوف وما يحبس الناس. فقال يعقوب: هذا باطل،

قال شريح: جاء محمد صلى الله عليه وسلم بإطلاق الحبس. فقال مالك: إنما أطلق ما كانوا يحبسونه لآلهم من البحيرة والسائبة، فأما الوقوف فهذا وقف عمر، قد استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «حبس أصلها وسبل ثمرتها»، وهذا وقف الزبير. فأعجب الخليفة ذلك منه، وبقي يعقوب. X¹⁶³

تحدثا في الوقف وآثاره. وفي خبر آخر جاء جواب شديد من مالك لأبي يوسف عند الرشيد. اتسعت أخبار المجالس للأخذ والمناظرة، وحفظت مواضع اللين والشدّة.¹⁶⁴

١٦٣ - السير 8/109-110: «عبد الرحمن بن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول».

١٦٤ - السير 8/64، عن قتيبة عن معن بن عيسى عن مالك.

الفصل الثالث عشر — مالك والخلفاء

تعاقب الخلفاء في حياة مالك، وبقي مجلسه في المدينة مقصداً. أراد بعضهم حمل الناس على كتابه، وجاءت عنه لقاءات يظهر فيها وزن العلم أمام السلطان. وفي مرحلة من هذا العمر سيصيبه من السلطة أذى تحفظ أخباره السيرة.

«فأين التكلم بالحق؟»

كان مالك يدخل على الخلفاء والولاة، ولم يكن ذلك بلا سؤال من حوله. روى ابن أبي حاتم عن أبيه:

حدثني عبد المتعال بن صالح، من أصحاب مالك، قال: قيل لمالك بن أنس: إنك تدخل على السلطان وهم يظلمون ويجورون. قال: يرحمك الله، فأين التكلم بالحق؟¹⁶⁵ X

سئل مالك عن دخوله، فأجاب عن الكلام بالحق. من هذا الجواب نفهم اختياره هو، ثم ننظر فيما حفظته المجالس من قوله وفعله. ولا يلزم أن تكون طريقته طريق كل ناصح؛ إنما نتابع كيف حمل العالم مسؤوليته في الظروف التي لقيها.

١٦٥ — الجرح والتعديل، التقدمة 1/29-30؛ وفي السير 8/111: «فأين المكلم بالحق».

أبو جعفر المنصور

روى الذهبي عن أبي مصعب الزهري، صاحب مالك:

سمعت مالكا يقول: دخلت على أبي جعفر أمير المؤمنين، وقد نزل على مثال له — يعني فرشته — وإذا على بساطه دابتان ما تروثان ولا تبولان، وجاء صبي يخرج ثم يرجع، فقال لي: أتدري من هذا؟ قلت: لا. قال: هذا ابني، وإنما يفزع من هيبتك. ثم ساءلني عن أشياء منها حلال ومنها حرام، ثم قال لي: أنت والله أعقل الناس وأعلم الناس. قلت: لا والله يا أمير المؤمنين. قال: بلى، ولكنك تكتم. ثم قال: والله لئن بقيت لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف، ولأبعثن به إلى الآفاق فلا حملهم عليه. ^{X 166}

وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن موسى بن داود قاضي طرسوس: سمعت مالك بن أنس يقول: قدم علينا أبو جعفر أمير المؤمنين سنة نحسين ومائة، فدخلت عليه فقال لي: يا مالك كثر شيبك. قلت: يا أمير المؤمنين، من أتت عليه السنون كثر شيبه. قال: يا مالك، ما لي أراك تعتمد على قول ابن عمر من بين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؟ قلت: يا أمير المؤمنين، كان آخر من بقي عندنا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاحتاج الناس فسألوه

فتمسكوا بقوله. فقال: يا مالك، عليك بما علمت أنه الحق عندك،
ولا تقولن عليا وابن عباس. X¹⁶⁷

في هذه الأخبار خليفة يثني، ثم خليفة يسأل ويعترض، وعالم يبين
ما عنده. وعند السؤال عن ابن عمر يعيد مالك الحديث إلى حاجة
أهل المدينة إلى علم من بقي عندهم من الصحابة. وحفظ موسى
بن داود سنة اللقاء، فبقي لهذا المجلس موضع معلوم في الزمن، إلى
جانب ما وصل من كلماته.

ومما حفظ ابن وهب عنه: «دخلت على المنصور، وكان يدخل
عليه الهاشميون فيقبلون يده ورجله، عصمني الله من ذلك». وفي
لفظ آخر: «فرأيت غير واحد من بني هاشم يقبلون يده، وعوفيت
فلم أقبل له يدا». ¹⁶⁸ وروى أبو زرعة عن أبي مسهر: «قال لي
مالك: قال لي أبو جعفر: يا أبا عبد الله، ذهب الناس، لم يبق
غيري وغيرك». ¹⁶⁹

١٦٧ - الجرح والتعديل، التقدمة 1/30، عن أحمد بن سنان عن موسى بن داود؛
واختصره الذهبي في السير 8/112 بلا الجملة الأخيرة. في المطبوع «فدخلت» و«يا
ملك».

١٦٨ - السير 8/67 عن ابن وهب؛ واللفظ الآخر في 8/79.

١٦٩ - السير 8/79، عن أبي زرعة الدمشقي عن أبي مسهر.

حكى مالك امتناعه عن التقبيل وردّه إلى عافية الله. ثم بقيت كلمة المنصور شاهداً على منزلته عند قائلها. نقرأ جواب العالم وثناء الخليفة كلاً في حدوده، ونرى من خلاهما شيئاً من صلتها، دون أن نزيد على الخبر ما لا يقوله.

المهدي: «العلم يؤتى أهله»

مرّ في الفصل الأول خبر المهدي حين أراد أن يسمع ابنه هارون وموسى من مالك؛ وأول ذلك الخبر: «قدم المهدي المدينة، فبعث إلى مالك فأتاه، فقال لهارون وموسى: اسمعا منه. فبعث إليه فلم يجبهما، فأعلمها المهدي فكلمه، فقال: يا أمير المؤمنين، العلم يؤتى أهله. فقال: صدق مالك، صيرا إليه».¹⁷⁰

وروى ابن أبي حاتم عن الحسين بن عروة خبراً في مالٍ بعثه خليفة ثم طلب منه أن يصحبه:

لما حج هارون وقدم المدينة بعث إلى مالك بكيس فيه خمسمائة دينار، فلما قضى نسكه وانصرف وقدم المدينة بعث إليه أن أمير المؤمنين يحب [أن] يزامل مالكا إلى مدينة السلام. فقال للرسول:

١٧٠ — السير 8/63، عن عمر بن الحبر الرعيني؛ وتمام الخبر في الفصل الأول من هذا الكتاب.

قل له: إن الكيس بخاتمه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون». قال: فتركه. ¹⁷¹X

اختلفت ألفاظ هذا الخبر في اسم الخليفة ومقدار المال؛ فجاء اسم المهدي بدل هارون في رواية، وورد اسم المأمون في أخرى مع أنه لم يكن خليفة في حياة مالك. لذلك لا نجمع التفاصيل في واقعة جازمة. والمذكور هنا أن مالكا أعلن بقاء المال على حاله واعتذر عن مغادرة المدينة؛ وليس في هذا اللفظ وحده وصف تسليم المال راجعاً.

الرشيد: «إذا منع العام لبعض الخاص»

روى الذهبي عن مصعب الزبيري:

سأل هارون الرشيد مالكا — وهو في منزله ومعه بنوه — أن يقرأ عليهم. قال: ما قرأت على أحد منذ زمان، وإنما يقرأ علي. فقال:

١٧١ — الجرح والتعديل، المقدمة 1/30، عن نصر بن علي الجهضمي عن الحسين بن عروة، ما بين المعقوفين من المحقق، وفي المطبوع «إلى المدينة السلام». ورواه الذهبي في السير 62/8-63 عن الجهضمي عن حسين بن عروة بذكر المهدي و«ألفي دينار أو ثلاثة آلاف دينار» و«والمال عندي على حاله». وعند أبي نعيم، الحلية 331/6-332، عن أبي مسهر بذكر «المأمون» وثلاثة آلاف دينار وحمل الناس على الموطأ، وتقدم في الفصل الثامن.

أخرج الناس حتى أقرأ أنا عليك. فقال: إذا منع العام لبعض
الخاص لم ينتفع الخاص. وأمر معن بن عيسى فقرأ عليه.^{X 172}
بقي الناس في المجلس، وقرأ معن على مالك. طلب الخليفة عناية
خاصة، فأبقى الشيخ طريقته في القراءة وحضور السامعين. في
نهاية الخبر نعود إلى صورة المجلس التي عرفناها: قارئ يؤدي،
وعالم يسمع ويصحح، وناس يأخذون العلم معهم.
وفي الخبر الذي مر تعقب الذهبي على اسم الخليفة فيه، ورد
جوابان آخران عن تغيير المنبر وتقديم نافع للإمامة:
وأما نقض منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم واتخاذك إياه من
جوهر وذهب وفضة، فلا أرى أن تحرم الناس أثر النبي صلى الله
عليه وسلم. وأما تقدمتك نافعاً إماماً يصلي بالناس في مسجد رسول
الله صلى الله عليه وسلم، فإن نافعاً إماماً في القراءة ولا يؤمن أن
تندر منه نادرة في المحراب فتحفظ عليه. قال: وفقك الله يا أبا عبد
الله.^{X 173}

١٧٢ — السير 8/66، عن هارون بن موسى الفروي عن مصعب الزبيري.

١٧٣ — حلية الأولياء 6/332، عن عبد الله بن عبد الحكم عن مالك؛ والسير 8/97-

98 مع قول الذهبي: «لعل الراوي وهم في قوله: هارون»؛ وتقدم في الفصل الثامن.

تحفظ الرواية اعتراضه على تغيير أثر المنبر، وتحفظ رأيه في تقديم نافع. ويبقى اختلاف اسم الخليفة قيداً على الخبر كله، فلا تحذف علته حين يذكر بعضه.

ومن كلامه في هذا الباب ما رواه الذهبي بإسناد مختصر عن إسحاق بن إبراهيم الحنيني: «كان مالك يقول: والله ما دخلت على ملك من هؤلاء الملوك حتى أصل إليه إلا نزع الله هيبته من صدري».¹⁷⁴ ونذكره كما جاء، بطريقة.

ما لا نستشهد به

ويجد القارئ في بعض الكتب رسالةً طويلةً منسوبةً إلى مالك إلى هارون الرشيد في الآداب والمواعظ. وقد قال الذهبي فيها: «ورسالة آداب إلى الرشيد، إسنادها منقطع، قد أنكرها إسماعيل القاضي وغيره، وفيها أحاديث لا تعرف. قلت: هذه الرسالة موضوعة. وقال القاضي الأبهري: فيها أحاديث لو سمع مالك من يحدث بها لأدبه».¹⁷⁵ فلا نستشهد بها في هذا الكتاب، وإن حسن كلامها.

١٧٤ — السير 8/66: «أحمد بن مسعود المقدسي: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنيني».

١٧٥ — السير 8/89. والرسالة مقيدة في جدول مصادر هذا الكتاب للتنبيه لا للاستشهاد.

فهو المهيب وليس ذا سلطان

قال أبو مصعب: «كانوا يزدهمون على باب مالك حتى يقتتلوا من الزحام، وكنا إذا كنا عنده لا يلتفت ذا إلى ذا، قائلون برؤوسهم هكذا، وكانت السلاطين تهابه، وكان يقول: لا، ونعم، ولا يقال له: من أين قلت ذا؟». ¹⁷⁶ وقال مصعب بن عبد الله الزبيري فيه: يدع الجواب فلا يراجع هيئة ... والسائلون نواكس الأذقان عز الوقار ونور سلطان التقى ... فهو المهيب وليس ذا سلطان ¹⁷⁷ X حفظ الشعر أثر هيئته فيمن رآه. ومع هذه المكانة أصابه أذى السلطان في مرحلة سابقة من حياته؛ فقد وقع ضربه في عهد المنصور على قول جمهور من نقل الخبر.

١٧٦ - السير 8/111.

١٧٧ - السير 8/113.

الفصل الرابع عشر — المحنة: ما ثبت وما اختلف فيه

ضرب مالك بالسياط. بقي أصل المحنة في الأخبار، واختلف الرواة في سببها وبعض تفاصيلها. قال الطبري: «وكان مالك قد ضرب بالسياط، واختلف فيمن ضربه وفي السبب الذي ضرب فيه». من المدينة وما جرى فيها نقرب من هذا الامتحان.¹⁷⁸

ما قبل الضرب: المدينة بين سنة أربع وأربعين وست وأربعين

جرت المحنة في سنوات كانت المدينة فيها مضطربة. ففي سنة خمس وأربعين ومئة خرج بها محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي — المعروف بالنفس الزكية — على الخليفة أبي جعفر المنصور، وانتهى خروجه بمقتله في السنة نفسها. وقبل ذلك بسنة كان المنصور قد طلب محمداً وأخاه إبراهيم من أهل بيتهما، وجعل

١٧٨ — الطبري، فيما رواه عنه ابن عبد البر في الانتقاء ص 43 (باب ذكر محنته مع السلطان) بإسناده: أبو عمر أحمد بن محمد، عن أحمد بن الفضل الدينوري، عن الطبري؛ وانظر السير 8/79. وقد قرأنا حوادث سنة 147 هـ من «تاريخ الرسل والملوك» (8/7-26، ط. دار المعارف) قراءة متصلة فلم نجد فيها ذكراً لضرب مالك؛ فالظاهر أن الخبر من كتاب الطبري في التراجم (ذيل المذيل)، ولم نفتحه.

مالكاً أحدَ رسوله إليهم. روى الطبري عن عمر بن شبة بإسناده إلى موسى بن عبد الله بن حسن، أخي محمد:

لما حج أبو جعفر أرسل محمد بن عمران بن إبراهيم بن محمد بن طلحة ومالك بن أنس إلى أصحابنا، فسألهم أن يدفعوا محمداً وإبراهيم ابني عبد الله، قال: فدخل علينا الرجلان وأبي قائم يصلي، فأبلغاهم رسالته. X¹⁷⁹

تجعله هذه الرواية رسولاً من الخليفة إلى بني حسن قبل خروج محمد بن عبد الله.

فلما خرج محمد في السنة التالية، لزم مالك بيته. قال الواقدي، فيما رواه عنه ابن سعد:

لما خرج محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة لزم مالك بيته، فلم يخرج منه حتى قتل محمد. X¹⁸⁰

وفي أخبار الطبري عن تلك السنة رواية أخرى، ساقها عن عمر بن شبة عن سعيد بن عبد الحميد الحكمي، قال: «أخبرني غير واحد»:

١٧٩ — تاريخ الطبري 7/539 (حوادث سنة 144هـ: ذكر حمل ولد حسن بن حسن

إلى العراق)، عن عمر بن شبة: «حدثني موسى بن عبد الله، قال: حدثني أبي عن أبيه».

١٨٠ — ابن سعد، الطبقات الكبرى، القسم المتمم لتابعي أهل المدينة، ص 440.

أن مالك بن أنس استفتي في الخروج مع محمد، وقيل له: إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر، فقال: إنما بايعتم مكرهين، وليس على كل مكره يمين. فأسرع الناس إلى محمد، ولزم مالك بيته.^{X¹⁸¹}

١٨١ - تاريخ الطبري 7/560 (حوادث سنة 145هـ)، عن عمر بن شبة: «حدثني سعيد بن عبد الحميد بن جعفر بن عبد الله بن الحكم بن سنان الحكمي، قال: أخبرني غير واحد».

في طريق خبر الفتوى رواة لم يسموا؛ فقد قال ناقله: «أخبرني غير واحد». فلا يعتمد وحده لإثبات جواب مالك في البيعة. وتذكر روايته ورواية الواقدي لزوم مالك بيته، مع ما في الطريقين من ضعف. وذكر الطبري خروج ابن هرمز مع محمد.¹⁸² لا تكفي هذه الأخبار للحكم على قصد كل واحد أو رسم موقف سياسي كامل للمالك.

١٨٢ — تاريخ الطبري 598/7-599، عن عمر بن شبة عن قدامة بن محمد: «خرج عبد الله بن يزيد بن هرمز ومحمد بن عجلان مع محمد»؛ وفيه عن محمد بن الحسن بن زبالة عن مالك خبر في ذلك، وابن زبالة ضعيف عندهم: قال ابن معين: «ليس بثقة، كان يسرق الحديث»، وقال أبو حاتم: «واهي الحديث» (الجرح والتعديل 227/7-228).

وفي السنة التي بعدها، سنة ست وأربعين ومئة، تغير والي المدينة.
قال الطبري: «وفي هذه السنة عزل عن المدينة عبد الله بن الربيع،
وولي مكانه جعفر ابن سليمان، فقدمها في شهر ربيع الأول».¹⁸³
وجعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس هو ابن عم
الخليفة المنصور، وبقي على المدينة إلى سنة خمسين ومئة.¹⁸⁴ وفي
ولايته هذه ضرب مالك.

أقدم ما وصلنا: رواية الواقدي

روى ابن سعد الخبر مفصلاً عن الواقدي. والواقدي ضعيف؛ قال
أبو حاتم: «متروك الحديث»، وقال ابن معين: «ليس بشيء».¹⁸⁵
وقال الذهبي: «وقد تقرر أن الواقدي ضعيف، يحتاج إليه في

١٨٣ — تاريخ الطبري 7/656 (حوادث سنة 146هـ).

١٨٤ — تاريخ الطبري 8/26 (عماله سنة 147هـ) و8/32 (عزله سنة 150هـ وتولية
الحسن بن زيد؛ في المطبوع في الموضع الأول «الحسن بن يزيد» وفي الذي بعده «الحسن
بن زيد العلوي»). وقول ابن خلكان: «وهو ابن عم أبي جعفر المنصور»: وفيات الأعيان
4/137.

١٨٥ — الجرح والتعديل 8/20-21؛ وفيه عن أبي زرعة: «ضعيف... ترك الناس
حديثه».

الغزوات والتاريخ، ونورد آثاره من غير احتجاج».¹⁸⁶ بهذا القيد
نقرأ روايته:

قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: لما دعي مالك بن أنس وشوور
وسمع [منه] وقبل قول [هـ]، شنف الناس له وحسدوه وبغوه بكل
شيء. فلما ولي جعفر ابن سليمان بن علي [على] المدينة سعوا به
إليه، وكثروا عليه عنده، وقالوا: لا يرى أيمن بيعتكم هذه بشيء،
وهو يأخذ بحديث رواه عن ثابت الأحنف في طلاق المكره أنه لا
يجوز. فغضب جعفر بن سليمان، فدعا بمالك، فاحتج عليه بما رقي
إليه عنه، ثم جرده ومدّه وضربه بالسياط، ومدت يده حتى انخلع
كتفاه، وارتكب منه أمر عظيم. فوالله ما زال بعد ذلك الضرب
في رفعة عند الناس وعلو من أمره وإعظام الناس له، وكأنا
كانت تلك السياط التي ضربها حليا حلى بها.¹⁸⁷ X

١٨٦ — السير 9/469 (ترجمة الواقدي)؛ وفي 9/464: «ويقولون: إن ما رواه عنه
كاتبه في (الطبقات) هو أمثل قليلا من رواية الغير عنه».

١٨٧ — ابن سعد، القسم المتمم ص 441-442. كذا في المطبوع عن نسخته
الوحيدة: «وسمع جعفر وقبل قول»، و«بن سليمان بن علي المدينة»؛ وما بين المعقوفين من
رواية الطبري عن الحارث عن ابن سعد به (الانتقاء ص 43-44): «وسمع منه وقبل
قوله»، «ولي جعفر بن سليمان على المدينة». وفي الانتقاء: «بما رفع إليه عنه»، و«انخلعت
كتفه». ورواه عن الواقدي مختصراً ابن قتيبة في المعارف ص 499، والذهبي في السير

وصلت أخبار الضرب، وفي تفصيل الواقدي ضعف. وبقيت بعد
الحنة أعوام يقصد فيها الناس مالكا ويأخذون عنه؛ لم ينته مجلس
العلم عند تلك السياط.

وفي سياق ترجمة مالك وصف الواقدي تغير عاداته في الخروج إلى
المسجد وزيارة الناس:

وكان مالك يأتي المسجد ويشهد الصلوات والجمعة والجنائز ويعود
المرضى، ويقضي الحقوق، ويجلس في المسجد، ويجتمع إليه أصحابه،
ثم ترك الجلوس في المسجد، وكان يصلي ثم ينصرف إلى منزله
وترك شهود الجنائز، فكان يأتي أصحابها فيعزيهم ثم ترك ذلك كله
فلم يكن يشهد الصلوات في المسجد ولا الجمعة، ولا يأتي أحدا يعزيه
ولا يقضي له حقا، واحتمل الناس ذلك كله له، وكانوا أرغب ما
كانوا فيه وأشد له تعظيما حتى مات على ذلك، وكان ربما كلم
في ذلك فيقول: ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره. ^{X 188}

لم تعين الرواية العذر، ولا ثبت أن ترك الخروج كان بسبب
الضرب. وربطته بعض الكتب المتأخرة بأثره في الجسد، وهو

80-8/79 وتاريخ الإسلام 4/724-725، وابن خلكان 4/137. و«شنف له»: أبغضه.

١٨٨ — ابن سعد، القسم المتمم ص442؛ ورواه عن الواقدي ابن قتيبة في المعارف
ص498-499، والذهبي في تاريخ الإسلام 4/725، وابن خلكان 4/136.

تفسير يحتاج إلى دليل.¹⁸⁹ أما كلمة مالك فوردت في الاعتذار عن ترك الخروج، ولا تدل على أنه امتنع عن الحديث عن محنته.

رواية ثانية: الطبري عن مروان الطاطري

ساق الطبري، قبل رواية الواقدي، روايةً أخرى بإسناد آخر، نقلها عنه ابن عبد البر في «الانتقاء» بإسناده إليه:

قال: فحدثني العباس بن الوليد قال: نا ابن ذكوان عن مروان الطاطري: أن أبا جعفر نهى مالكا عن الحديث (ليس على مستكره طلاق) ثم دس إليه من يسأله عنه، فحدث به على رؤوس الناس، فضربه بالسياط. قال: وحدثني العباس قال: أخبرني إبراهيم بن حماد أنه كان ينظر إلى مالك إذا أقيم من مجلسه حمل يده اليمنى أو يده اليسرى بالأخرى.¹⁹⁰ X

١٨٩ - ترتيب المدارك 2/136، عن المنذر، بلا إسناد.

١٩٠ - الانتقاء ص 43-44، بإسناد ابن عبد البر إلى الطبري؛ في المطبوع «رؤس». وساقه الذهبي في السير 8/79 بلفظ: «فحدثني العباس بن الوليد، حدثنا ابن ذكوان، عن مروان الطاطري... وحدثنا العباس، حدثنا إبراهيم بن حماد: أنه كان ينظر إلى مالك إذا أقيم من مجلسه، حمل يده بالأخرى». ونقل القاضي عياض قول الطبري بلفظ: «اختلف فيمن ضرب مالكا وفي السبب في ضربه وفي خلافة من ضرب» (ترتيب المدارك 2/130).

حفظ إبراهيم بن حماد ما رآه: يحمل مالك إحدى يديه بالأخرى إذا أقيم من مجلسه. يصل من هذه الشهادة أثر ظاهر في الجسد، وتختلف الأخبار في تفاصيل ما أحدثه.

ما قاله أحمد وأبو داود

ولنسمع الآن إمامين من أئمة الحديث بعد مالك بجيل، كيف تكلموا في الخبر. روى أبو نعيم بإسناده عن الفضل بن زياد: سألت أحمد بن حنبل: من ضرب مالك بن أنس؟ قال: ضربه بعض الولاة لا أدري من هو، إنما ضربه في طلاق المكره كان لا يجيزه، فضربه لذلك.¹⁹¹ X

حدد أحمد السبب الذي بلغه، وتوقف في اسم الوالي. حفظ السائل جوابه وتوقفه معاً.

وروى أبو نعيم أيضاً عن أبي داود السجستاني صاحب «السنن»: سمعت أبا داود يقول: ضرب جعفر بن سليمان مالك بن أنس في طلاق المكره. وحكى لي بعض أصحاب ابن وهب، عن ابن وهب:

١٩١ — حلية الأولياء 6/316: «حدثنا أبو محمد بن حيان، ثنا محمد بن أحمد بن عمرو،

ثنا عبد الله بن أحمد بن كليب، عن الفضل بن زياد القطان»؛ ورواه الذهبي بإسناده إلى

أبي نعيم في السير 8/95، وذكره في تاريخ الإسلام 4/730.

أن مالكا لما ضرب حلق وحمل على بعير، فقيل له: ناد على نفسك.
قال: فقال: ألا من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا مالك
بن أنس بن أبي عامر الأصبحي، وأنا أقول: طلاق المكره ليس
بشيء. قال: فبلغ جعفر بن سليمان أنه ينادي على نفسه بذلك،
فقال: أدركوه، أنزلوه. X¹⁹²

أما خبر حمله على البعير وندائه، فجاء عن ناقل لم يسم، فلا يثبت
تفصيله. وحفظ جواب أبي داود تسمية جعفر بن سليمان وربط
الضرب بقول مالك في طلاق المكره.

المسألة نفسها: طلاق المكره

أما المسألة الفقهية فتظهر في خبر ثابت بن الأحنف الذي رواه
مالك في الموطأ:

وحدثني عن مالك، عن ثابت بن الأحنف: أنه تزوج أم ولد لعبد
الرحمن بن زيد بن الخطاب، قال: فدعاني عبد الله بن عبد الرحمن
بن زيد بن الخطاب فجئته، فدخلت عليه، فإذا سياط موضوعة،
وإذا قيدان من حديد، وعبدان له قد أجلسهما، فقال: طلقها وإلا

١٩٢ — حلية الأولياء 6/316: «حدثنا أحمد بن إسحاق، ثنا أبو بكر بن محمد بن أحمد بن
راشد، قال: سمعت أبا داود يقول»، ورواه الذهبي بإسناده إلى أبي نعيم في السير 8/96،
وذكره في تاريخ الإسلام 4/730 بقوله: «وقال أبو داود السجزي».

والذي يحلف به فعلت بك كذا وكذا. قال: فقلت: هي الطلاق ألفا. قال: نخرجت من عنده، فأدركت عبد الله بن عمر بطريق مكة فأخبرته بالذي كان من شأني، فتغيظ عبد الله، وقال: ليس ذلك بطلاق، وإنما لم تحرم عليك، فارجع إلى أهلك. قال: فلم تقررني نفسي، حتى أتيت عبد الله بن الزبير، وهو يومئذ بمكة أمير عليها، فأخبرته بالذي كان من شأني، وبالذي قال لي عبد الله بن عمر، قال: فقال لي عبد الله بن الزبير: لم تحرم عليك، فارجع إلى أهلك. وكتب إلى جابر بن الأسود الزهري، وهو أمير المدينة، يأمره أن يعاقب عبد الله بن عبد الرحمن، وأن يحليني بيني وبين أهلي. قال: فقدمت المدينة، فجهزت صفيّة امرأة عبد الله بن عمر امرأتي حتى أدخلتها علي بعلم عبد الله بن عمر، ثم دعوت عبد الله بن عمر يوم عرسى لوليمتي فجاءني. ^{X 193}

وهذا مذهب مالك الذي رواه عنه ابن القاسم في «المدونة»:

قلت: رأيت طلاق المكره ومخالعته؟ قال: مالك: لا يجوز طلاق المكره، فمخالعته مثل ذلك عندي. قلت: وكذلك نكاح المكره

١٩٣ — الموطأ، رواية يحيى، كتاب الطلاق، باب جامع الطلاق، رقم 78 (2/587)
بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار إحياء التراث العربي).

وعتق المكره لا يجوز في قول مالك؟ قال: نعم، كذلك قال مالك.¹⁹⁴

أفتى ابن عمر وابن الزبير في هذا الخبر بعدم وقوع الطلاق مع الإكراه، وروى ابن القاسم القول نفسه عن جماعة غيرهما.¹⁹⁵ فهذا أصل المسألة التي نقلها مالك. أما إلحاق أيمان البيعة بها في الحادثة، فتذكره أخبار تحتاج طرقها إلى التثبت؛ ولا يستخرج من قصة الطلاق وحدها حكم بكل صور الإكراه والبيعة.

ما تحفظه أخبار المحنة

تلتقي الأخبار في أصل الضرب، ويربط عدد منها المحنة بقول مالك في طلاق المكره. ثم تختلف تفاصيلها: من أمر، وما سبق، وما تبع. عند أصل المحنة نعرف ما أصاب الرجل، وتبين الحواشي حدود كل تفصيل.

١٩٤ — المدونة 2/79 (ط. دار الكتب العلمية 1415هـ)؛ «قال: مالك:» كذا ترقيمه في المطبوع، والمراد: قال ابن القاسم: قال مالك.

١٩٥ — المدونة 2/83، باب طلاق المكره والسكران: «وأخبرني ابن وهب عن رجال من أهل العلم عن علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وابن عباس وعطاء بن أبي رباح وعبد الله بن عبيد بن عمير ومجاهد وطاوس وغيرهم من أهل العلم أنهم كانوا لا يرون طلاق المكره شيئاً».

بقي أثر في جسده رآه بعض جلسائه، وبقي مجلس يحمل عنه العلم.
اجتمع في أخبار هذه السنوات ألم الرجل ومنزلته عند من كانوا
يقصدونه.

ما اختلف فيه

وجمع عياض أقوالاً أخرى من غير أسانيد في المواضع المذكورة.
تكشف هذه الأقوال مواضع الاختلاف، ولا تجعل جميع
تفاصيلها في مرتبة واحدة من الثبوت.¹⁹⁶

في السنة: قال مصعب الزيري: «وكان ضربه سنة ست وأربعين ومائة، وقيل سنة سبع وأربعين».¹⁹⁷ وجزم ابن الجوزي في «شذور العقود» بسنة سبع وأربعين، فيما نقله ابن خلكان.¹⁹⁸ والسنتان داخلتان في ولاية جعفر بن سليمان على المدينة. واختلف العدد المنقول للسياط بين ثلاثين ومئة، مع أعداد أخرى بينهما.¹⁹⁹ لا نعرف من هذه الأخبار عدداً يصح الجزم به.

١٩٧ — ترتيب المدارك 2/135؛ ونحوه في تاريخ الإسلام 4/730: «قال مصعب بن عبد الله: ضربه ثلاثين سوطاً، ويقال: ستين سوطاً، وذلك في سنة ست وأربعين ومائة». وقال محقق القسم المتمم من طبقات ابن سعد (ص 441، الحاشية 3): «وكان ذلك سنة ست وأربعين ومائة».

١٩٨ — وفيات الأعيان 4/137: «وذكر ابن الجوزي في شذور العقود في سنة سبع وأربعين ومائة: وفيها ضرب مالك بن أنس سبعين سوطاً لأجل فتوى لم توافق غرض السلطان، والله أعلم».

١٩٩ — ترتيب المدارك 2/133 (مطرف وابن القاسم: ثمانون) و134-2/135 (مصعب: ثلاثون؛ وقيل نيف وثلاثون؛ ويقال ستون؛ بكير بن إبراهيم: سبعون؛ وقيل نيف وسبعون؛ وقيل مئة «من رواية الحارث عن ابن القاسم»). وقال ابن فرحون: «واختلف أيضاً في مقدار ضربه من ثلاثين إلى مائة» (الديباج 1/131).

في السبب: ما تقدم من طلاق المكره هو قول أكثر الرواة. وقال مطرف ومصعب: كان ذلك «بسبب محمد بن عبد العزيز الزهري» — قاضي المدينة يومئذ — «حمله عليه في عمله الأول أنه يفتي الناس أن ليس على من أكره على بيعه شيء».²⁰⁰ وخالف ذلك كله يحيى بن بكير فقال: «ما ضرب إلا في تقديمه عثمان على علي، فسعى به الطالبيون حتى ضرب. قيل لابن بكير: خالفت أصحابك، هم يقولون ضرب في البيعة. قال: أنا أعلم من أصحابي».²⁰¹ وقال أحمد بن صالح: «إنما ضرب مالك في الطلاق قبل النكاح، كان لا يراه ثم رآه»، فقال أبو داود: «ولم يصنع أحمد شيئاً».²⁰² وقال ابن كنانة: ضرب «في أيمان السلطان إنها لا تلزم، وفي دفع الصدقات إليهم».²⁰³

٢٠٠ — ترتيب المدارك 2/133؛ وفيه عن إبراهيم بن حماد الزهري: «وقيل لمالك: هذا ابن عبد العزيز الزهري قد وقف في المسجد، وكان قاضي المدينة، وهو الذي بغى بمالك. فقال مالك: ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله».

٢٠١ — ترتيب المدارك 2/134؛ والديباج 1/131.

٢٠٢، ٢٠٣ — ترتيب المدارك 2/134.

في الخليفة: على أنه في أيام المنصور عند عامة الرواة، «وقيل إن هذا كان في أيام الرشيد»، وقال ابن فرحون: «والأول أصح».²⁰⁴

ما يروى في العفو

وردت أخبار أن مالكا عفا عمن ضربه، منها ما نقله الباجي وحكاه الذهبي، ومنها روايات أوردها عياض بعبارات مختلفة.²⁰⁵،²⁰⁶

٢٠٤ — ترتيب المدارك 2/131 («وقيل إن هذا كان في أيام الرشيد»); والديباج 1/131: «وأما في خلافة من ضرب فالأشهر أن ذلك كان في أيام أبي جعفر، وقيل إن هذا كله كان في أيام الرشيد، والأول أصح».

٢٠٥ — السير 8/113؛ وتاريخ الإسلام 4/725.

٢٠٦ — ترتيب المدارك 2/131؛ وفيه: «فقال: أعوذ بالله». ونحوه في الديباج 1/131.

وفيهما أنه أحل ضاربه يوم ضرب، أو عفا عنه بعد وساطة، أو أجابه بذلك في لقاء لاحق. وروى في مقابلها أنه أبي التحليل. 207، 208، 209، 210، 211

ويروى أنه عفا عمن ضربه، لكن طرق أخبار العفو لم تثبت هنا. لذلك تبقى هذه الكلمة في نطاق ما يحكى عنه، وتقوم صورة بقية حياته على أخبار العلم والرواية التي حفظها أصحابه.

٢٠٧ — ترتيب المدارك 2/132، بلا إسناد؛ وفي تاريخ الإسلام 4/730: «وعن إسحاق الفروي وغيره قال: ضرب مالك ونيل منه، وحمل مغشيا عليه».

٢٠٨ — ترتيب المدارك 2/134، بلا إسناد؛ ونحوه في الديباج 1/131.

٢٠٩ — ترتيب المدارك 2/133، بلا إسناد؛ وفيه قبله عن مطرف: «فأيت آثار السياط في ظهره قد شرحته تشريحا، وكان حين مدوه في الحبل بين يديه خلعوا كتفيه حتى كان ما يستطيع أن يسوي ردائه»؛ في المطبوع «طهره».

٢١٠ — تاريخ الإسلام 4/730؛ وفي ترتيب المدارك 2/135: «قال الأصمعي: وأنا مشيت بين جعفر بن سليمان ومالك حتى حلله».

٢١١ — ترتيب المدارك 2/135-136، عن المنذر، بلا إسناد.

ومن المنقول عنه أيضاً: «ضربت فيما ضرب فيه سعيد بن المسيب
ومحمد بن المنكدر وربيعه، ولا خير فيمن لا يؤذى في هذا
الأمر».²¹² تبقى نسبتها محتاجة إلى ما يثبت طرقها.

ثمرة المحنة

ختم الذهبي الخبر في «السير» بكلمة تصلح خاتمةً لهذا الفصل:

٢١٢ — ترتيب المدارك 2/132 (عن القروي والعمرى، بلا إسناد؛ وفي المطبوع:
«وقد ضربت فيه محمد بن المنكدر وربيعه وابن المسيب ولا خير فيمن لا يؤذى في هذا
الأمر»؛ واللفظ المثبت من تاريخ الإسلام 4/730: «فعن مالك قال».

قلت: هذا ثمرة المحنة المحمودة، أنها ترفع العبد عند المؤمنين، وبكل حال فهي بما كسبت أيدينا، ويعفو الله عن كثير: (ومن يرد الله به خيرا يصب منه). وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (كل قضاء المؤمن خيرا له). وقال الله تعالى: {ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين} [محمد: 31]. وأنزل تعالى في وقعة أحد قوله: {أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم} [آل عمران: 165]. وقال: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير} [الشورى: 30]. فالمؤمن إذا امتحن صبر واتعظ واستغفر، ولم يتشاغل بدم من انتقم منه، فالله حكم مقسط، ثم يحمد الله على سلامة دينه، ويعلم أن عقوبة الدنيا أهون وخير له. ²¹³X

رجا الليث أن يرفعه الله بكل سوط درجة، ووصف أبو نعيم سيرته بقوله: «تحقق بالتقوى فابتلي بالبلوى». بقي أثر الضرب في الأخبار

التي حفظها جلساؤه، وبقي بعده مالك يقصد الناس مجلسه
ويأخذون عنه العلم.^{214 215}

٢١٤ - ترتيب المدارك 2/134 (في المطبوع «بكل سود»)، وتاريخ الإسلام 4/730:
«وعن الليث بن سعد قال: إني لأرجو أن يرفعه الله بكل سوط درجة في الجنة». كلاهما
بلا إسناد.

٢١٥ - حلية الأولياء 6/316، في صدر ترجمته.

الفصل الخامس عشر — ما حفظ عنه في الاعتقاد

حفظ أصحابه كلمات له في أصول الدين، وحملت الكتب بعض أجوبته ووصاياه. لكل نص طريق تبينه حاشيته، ومنها تقترب من العلم الذي كان يدافع عنه ويعلمه.²¹⁶

«بعث الله محمدًا بدين واحد»

أول ما يلفت القارئ في هذه الكلمات أنها تبدأ من رفض الجدل نفسه. روى ابن عبد البر بإسناده إلى معن بن عيسى، صاحب مالك، قال:

انصرف مالك يوماً من المسجد وهو متكئ على يدي، قال: فليحقه رجل يقال له أبو الجويرية، كان يتهم بالإرجاء، فقال: يا أبا عبد الله، اسمع مني شيئاً أكلمك به وأحاجك وأخبرك برأي. قال: فإن

٢١٦ — حلية الأولياء 6/324-327؛ الانتقاء ص 32-36 (باب قول مالك رحمه الله في أهل الأهواء والبدع)؛ ترتيب المدارك 2/38-46 (باب اتباعه السنن وكرهيته المحدثات وبعض ما روي عنه في عقائد أهل السنة والكلام في أهل الأهواء)؛ السير 8/98-108 («من قول مالك في السنة»). وأكثر ما عند عياض في هذا الباب بلا إسناد، فقدّمنا عليه ما أسنده أبو نعيم وابن عبد البر وابن سعد، وأشرنا إلى ما عنده في موضعه.

غلبتني؟ قال: اتبعني. قال: فإن غلبتك؟ قال: اتبعتك. قال: فإن جاء رجل فكلمناه فغلبنا؟ قال: تبعناه. قال أبو عبد الله: بعث الله محمداً بدين واحد وأراك تنتقل. قال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل.^{X²¹⁷}

سأله مالك عما سيصنع إذا جاء من يغلبهما معاً، فكشف السؤال مشكلة جعل الغلبة وحدها سبيل الاعتقاد. وورد عنه هذا المعنى في روايات أخرى، منها: «كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما نزل به جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم

٢١٧ — الالتقاء ص 33، عن الدولابي: حدثنا جعفر بن محمد الفريابي، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، حدثنا معن بن عيسى؛ في المطبوع «برأى». وذكره عياض 39-2/38 بلا إسناد، والذهبي في السير 8/106 عنه.

لجلده». ²¹⁸ وحفظ الشافعي وابن القاسم وابن وهب عنه التحذير من الخصومة في الدين وما تورثه من بغضاء. ²¹⁹، ²²⁰، ²²¹

ولم يكن هذا الرفض عجزاً عن الرد؛ فقد كُتب إليه من القيروان في ذلك. ذكر أبو العرب التميمي — فيما نقله عنه القاضي عياض — أن عبد الله بن فروخ كتب إلى مالك يخبره أن بلدهم كثير البدع، وأنه ألف لهم كتاباً في الرد عليهم:

فكتب إليه مالك يقول له: إن ظننت ذلك بنفسك خفت أن تزل وتهلك، لا يرد عليهم إلا من كان ضابطاً عارفاً بما يقول لهم، لا يقدر أن يعرجوا عليه، فهذا لا بأس به. وأما غير ذلك فإنني

٢١٨ — حلية الأولياء 6/324: «حدثنا محمد بن أحمد، ثنا جعفر بن محمد الفريابي، ثنا الحسن بن علي الحلواني، قال: سمعت إسحاق بن عيسى يقول:» ورواه الذهبي بإسناده إلى أبي نعيم في السير 8/99 بلفظ: «أكلها جاءنا رجل أجدل من رجل...!؟».

٢١٩ — حلية الأولياء 6/324: «حدثنا الحسن بن سعيد بن جعفر، ثنا زكريا بن يحيى الساجي، ثنا أبو داود، ثنا أبو ثور، قال: سمعت الشافعي يقول:» والسير 8/99 بإسناد أبي نعيم. وعند عياض 2/41 عن ابن وهب بنحوه.

٢٢٠ — الانتقاء ص 34، من سماع ابن القاسم فيما نقله ابن عبد البر؛ في المطبوع «بشيء».

٢٢١ — السير 8/108: «حرملة: حدثنا ابن وهب، سمعت مالكا يقول».

أخاف أن تكلمهم فتخطئ، فيمضون على خطاك، أو يظفروا منه
بشيء فيطغوا ويزدادوا تماديا على ذلك.^{X²²²}

يبقى الخبر بقيد إسناده. وفيه اشتراط المعرفة والضبط لمن يتولى
الرد؛ فلا ننقله حكماً ثابتاً عن مالك لمجرد موافقة معناه لبعض
أخباره الأخرى.

«أهل السنة الذين ليس لهم لقب»

ومن المنقول عنه في تعريف أهل السنة خبر رواه ابن عبد البر وفي
طريقه «شيخ لنا» لم يسمه الناقل:

جاء رجل إلى مالك فقال: يا أبا عبد الله، أسألك عن مسألة
أجعلك حجة فيما بيني وبين الله عز وجل. قال مالك: ما شاء الله،
لا قوة إلا بالله، سل. قال: من أهل السنة؟ قال: أهل السنة الذين

٢٢٢ — ترتيب المدارك 109/3-110 (ترجمة عبد الله بن فروخ)، عن أبي العرب

التميمي، بلا إسناد؛ في المطبوع «فتخطئ».

ليس لهم لقب يعرفون به، لا جهمي ولا قدري ولا رافضي.²²³

X

تبقى نسبة هذا الجواب محتاجة إلى التثبت بسبب الراوي المبهم.
ولا يستخرج منه أن كل لقب علمي أو فقهي مخالفة للسنة. وورد
عن عبد الله بن نافع كلام آخر لمالك في اجتناب الأهواء
والبدع.²²⁴

الإيمان: قولٌ وعمل

سأله أصحابه عن الإيمان، وحفظوا أجوبته بألفاظ مختلفة. من ذلك
رواية ابن وهب:

سئل مالك بن أنس عن الإيمان، فقال: قول وعمل. قلت: أيزيد
وينقص؟ قال: قد ذكر الله سبحانه في غير آي من القرآن أن

٢٢٣ — الالتقاء ص 35: «أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن، قال: أخبرني
القاضي محمد بن أحمد المالكي، قال: نا إبراهيم بن حماد، قال: نا الحسن بن عبد العزيز
الجروي، قال: نا شيخ لنا»؛ في المطبوع «لا جهمي». وعند عياض 2/41 بلا إسناد،
وفيه: «لا جهمي ولا رافضي ولا قدري».

٢٢٤ — حلية الأولياء 6/325: «حدثنا أحمد بن جعفر بن سلم، ثنا يحيى بن عبد
الباقي، قال: سمعت النضر بن سلمة بن شاذان يقول: ثنا عبد الله بن نافع».

الإيمان يزيد. فقلت له: أينقص؟ قال: دع الكلام في نقصانه وكف عنه. فقلت: فبعضه أفضل من بعض؟ قال: نعم.^{X 225}
وروى ابن سعد عن إسماعيل بن أبي أويس، ابن أخت مالك، قال:

سئل مالك عن الإيمان، يزيد وينقص؟ فقال: يزيد، وذلك في كتاب الله. فقيل له: وينقص يا أبا عبد الله؟ قال: ولا أريد أن أبلغ هذا.^{X 226}

وروى عبد الله بن نافع الصائغ عنه الجملة تامة: «كان مالك يقول: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص».²²⁷ وقال عبد الرزاق بن همام: «سمعت ابن جريج وسفيان الثوري ومعمار بن راشد وسفيان بن

٢٢٥ — الانتقاء ص33: «قال: وأخبرنا يونس بن عبد الأعلى، قال: نا ابن وهب».

٢٢٦ — ابن سعد، القسم المتمم لتابعي أهل المدينة، ص439؛ وأحال محققه (الحاشية 7) على الحلية 6/327.

٢٢٧ — حلية الأولياء 6/327: «حدثنا إبراهيم بن عبد الله، ثنا محمد بن إسحاق، ثنا جعفر بن محمد الصائغ، ثنا سريج بن النعمان، ثنا عبد الله بن نافع»؛ وبخوه في الانتقاء ص36 عن جعفر بن محمد الصائغ عن سريج عن ابن نافع.

عينه ومالك بن أنس يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص».²²⁸

أثبتت هذه الأخبار قوله إن الإيمان قول وعمل، واختلفت في التصريح بنقصانه: توقف في روايات، وجاء لفظ «يزيد وينقص» في أخرى. وجمع عياض الوجهين.²²⁹ نحفظ الاختلاف كما نقل، ولا نعين ترتيب الأجوبة أو سبب التوقف من غير دليل. ويبين مأخذه في هذا الباب جوابه الذي رواه عنه أشهب:

قال مالك: أقام الناس يصلون نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا، ثم أمروا بالبيت الحرام، فقال الله تعالى: {وما كان الله ليضيع إيمانكم}، أي صلاتكم إلى بيت المقدس. قال مالك: وإني لأذكر بهذه الآية قول المرجئة: إن الصلاة ليست من الإيمان.²³⁰ X

٢٢٨ — الاتقاء ص 34: «قال: وسمعت مؤمل بن إهاب يقول: سمعت عبد الرزاق بن همام يقول»؛ والسير 8/108 عن سلمة بن شبيب عن عبد الرزاق.

٢٢٩ — ترتيب المدارك 2/43؛ كذا في المطبوع: «قول وعمل وينقص»، وعند الذهبي في السير 8/102 عن عياض: «الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وبعضه أفضل من بعض».

٢٣٠ — الاتقاء ص 34: «قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، قال: أنا أشهب بن عبد العزيز»؛ في المطبوع «وإني لا ذكر». والآية: البقرة 143. وبخوه عند عياض

استدل مالك على دخول العمل في الإيمان بتسمية الصلاة إيماناً. وفي جواب آخر حفظه ابن القاسم نراه يرجع إلى القرآن وهو يتكلم على أهل الأهواء. ومن سماع ابن القاسم: «قال مالك: ما آية في كتاب الله أشد على أهل الأهواء من هذه الآية: {يوم تبيض وجوه وتسود وجوه}، يقول الله تعالى: {فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون}». قال: فأبي كلام أبين من هذا؟ ورأيت تؤولها على أهل الأهواء».²³¹

القرآن كلام الله

روى أبو نعيم بإسناده إلى أبي مصعب الزهري، قال: سمعت مالك بن أنس يقول: «القرآن كلام الله غير مخلوق».²³² وبإسناده إلى ابن أبي أويس، قال: سمعت مالك بن أنس يقول: «القرآن كلام

2/43 عن زهير بن عباد، بلا إسناد.

٢٣١ — الانتقاء ص 33-34، من سماع ابن القاسم؛ في المطبوع «ق كتاب الله». والآيتان: آل عمران 106.

٢٣٢ — حلية الأولياء 6/325: «حدثنا محمد بن سليمان بن إبراهيم الهاشمي، قال: سمعت أبا همام البكاوي يقول: سمعت أبا مصعب يقول»؛ في المطبوع قبل «القرآن» ألف زائدة.

الله، وكلام الله من الله، وليس من الله شيء مخلوق».²³³ وروى عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه، عن سريج بن النعمان، عن عبد الله بن نافع، قال: «كان مالك بن أنس يقول: الإيمان قول وعمل، ويقول: القرآن كلام الله، ويقول: من قال القرآن مخلوق يوجع ضرباً ويحبس حتى يتوب».²³⁴ وأشدّ من ذلك ما رواه يحيى بن خلف الطرسوسي — «وكان من ثقات المسلمين وعبادهم» كما وصفه أبو نعيم — قال:

كنت عند مالك بن أنس، ودخل عليه رجل فقال: يا أبا عبد الله، ما تقول فيمن يقول القرآن مخلوق؟ فقال مالك: زنديق، اقتلوه. فقال: يا أبا عبد الله، إنما أحكي كلاماً سمعته. فقال: لم أسمع من أحد، إنما سمعته منك. وعظم هذا القول.²³⁵ X

٢٣٣ — حلية الأولياء 6/325: «حدثنا إبراهيم بن عبد الله، ثنا محمد بن إسحاق، حدثني أحمد بن محمد بن أبي بكر بن سالم بن عبد الله بن عمر، ثنا ابن أبي أويس»، وفي السير 8/101 عن محمد بن إسحاق الصغاني عن أبي بكر أحمد بن محمد العمري عن ابن أبي أويس بلفظ: «وكلام الله منه»؛ وعند عياض 2/43.

٢٣٤ — الانتقاء ص 34-35: «قال: وأخبرني عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: نا أبي، قال: نا سريج بن النعمان، قال: نا عبد الله بن نافع»، وتتمته في الاستواء الآتي. وعند عياض 2/43: «وفي رواية ابن نافع عنه: يجلد ويحبس من قال ذلك»، والسير 8/102.

تحفظ الروايات شدة قوله، وتختلف في العقوبة المذكورة. ونقل عياض تفسيراً يفرق بين الداعية وغيره.²³⁶ يرد ذلك وصفاً لأقوال تاريخية؛ وليس تفويضاً للأفراد في الحكم على الناس أو إنزال العقوبات بهم.

الاستواء: «والكيف منه غير معقول»

ولخبر سؤاله عن الاستواء طرق وألفاظ مختلفة. روى عبد الله بن أحمد عن أبيه، عن سريج، عن عبد الله بن نافع: قال مالك بن أنس: الله عز وجل في السماء، وعلمه في كل مكان، لا يخلو منه مكان. قال: وقيل لمالك: {الرحمن على العرش استوى}، كيف استوى؟ فقال مالك رحمه الله: استواؤه معقول، وكيفيته مجهولة، وسؤالك عن هذا بدعة، وأراك رجل سوء.²³⁷ X

٢٣٥ — حلية الأولياء 6/325: «حدثنا سليمان بن أحمد، ثنا الحسن بن إسحاق التستري، ثنا يحيى بن خلف بن الربيع الطرسوسي»، والسير 8/99 بإسناد أبي نعيم؛ وعند عياض 2/44 بلا إسناد.

٢٣٦ — ترتيب المدارك 2/43-44؛ وذكر قبله روايات أخرى في العقوبة بلا إسناد.

٢٣٧ — التمهيد 7/138: «أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن، قال: حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: حدثني

ورواه أبو نعيم بإسناده إلى جعفر بن عبد الله، بآتم من هذا:
 كنا عند مالك بن أنس، فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله، الرحمن
 على العرش استوى، كيف استوى؟ فما وجد مالك من شيء ما
 وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض، وجعل ينكت بعود في يده
 حتى علاه الرخصاء - يعني العرق - ثم رفع رأسه ورمى بالعود،
 وقال: كيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول،
 والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأظنك صاحب بدعة.
 وأمر به فأخرج. X²³⁸

أبي، قال: حدثنا سريج بن النعمان، قال: حدثنا عبد الله بن نافع، في المطبوع «ملك» في
 الموضوعين. وأوله في الانتقاء ص 35 بلفظ: «لا يخلو منه شيء»، وعزاه الذهبي في السير
 8/101 إلى كتاب عبد الله بن أحمد «الرد على الجهمية». وقال ابن عبد البر بعده: «وقد
 روينا عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن أنه قال في قول الله عز وجل {الرحمن على العرش
 استوى} مثل قول مالك هذا سواء».

٢٣٨ — حلية الأولياء 6/325-326: «حدثنا محمد بن علي بن مسلم العقيلي، ثنا
 القاضي أبو أمية الغلابي، ثنا سلمة بن شبيب، ثنا مهدي بن جعفر، ثنا جعفر بن عبد
 الله»، والسير 8/100 بإسناد أبي نعيم، وزاد: «قال سلمة بن شبيب مرة في رواية هذا:
 وقال للسائل: إني أخاف أن تكون ضالا».

وذكر الذهبي طريقين آخرين: رواية ابن وهب: «{الرحمن على العرش استوى} كما وصف نفسه، ولا يقال له: كيف، و(كيف) عنه مرفوع، وأنت رجل سوء، صاحب بدعة، أخرجوه»، ورواية يحيى بن يحيى، وفيها: «فقال: الاستواء غير مجهول».²³⁹ وعند القاضي عياض عن سفیان بن عيينة، بلا إسناد: «فقال: الاستواء منه معلوم، والكيف منه غير معقول، والسؤال عن هذا بدعة، والإيمان به واجب، وإني لأظنك ضالاً، أخرجوه عني».²⁴⁰

يميز الجواب بين الإيمان بما وصف الله به نفسه وبين السؤال عن الكيفية. وروى الوليد بن مسلم عن مالك والأوزاعي والثوري والليث في أحاديث الصفات: «أمروها كما جاءت بلا كيف».²⁴¹

٢٣٩ — السير 8/100-101: «وقال أبو الربيع الرشيديني: حدثنا ابن وهب»؛ «وقال

محمد بن عمرو قشمرذ النيسابوري: سمعت يحيى بن يحيى يقول».

٢٤٠ — ترتيب المدارك 2/39؛ والسير 8/106-107 عن عياض.

٢٤١ — التمهيد 7/149: «أخبرنا أبو القاسم خلف بن القاسم، قال: حدثنا عبد الله بن جعفر بن الورد، قال: حدثنا أحمد بن إسحاق، قال: حدثنا أبو داود... قال أبو داود: وحدثنا الحسن بن محمد، قال: سمعت الهيثم بن خارجة، قال: حدثني الوليد بن مسلم»؛ في المطبوع «وملك بن أنس». ورواه ابن عبد البر في الانتقاء ص 36 عن ابن أبي خيثمة عن أبي الهيثم بن خارجة عن الوليد في «الأحاديث التي فيها ذكر الرؤية» بلفظ: «أمروها كما

وشرح ابن عبد البر هذا المسلك بالإيمان بالخبر والتصديق به وترك التحديد والكيفية.²⁴² تبقى ألفاظ كل رواية محفوظة، من غير تركيب لفظ واحد منها ونسبته إلى جميع ناقليها.

الرؤية

وسُئل عن رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة، فأجاب بالقرآن. روى أبو نعيم بإسناده إلى أبي حفص، قال: سمعت مالك بن أنس يقول: {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة}، قوم يقولون: إلى ثوابه. قال مالك: كذبوا، فأين هم عن قول الله تعالى: {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون}؟²⁴³ X

جاءت ولا كيف»؛ وسمّاه الذهبي في السير 8/105 «المحفوظ عن مالك»، ولفظه عنده: «أمرها كما جاءت، بلا تفسير».

٢٤٢ — التمهيد 7/148.

٢٤٣ — حلية الأولياء 6/326: «حدثنا إبراهيم بن عبد الله، ثنا محمد بن إسحاق، ثنا الحسن بن عبد العزيز، قال: سمعت أبا حفص يقول: سمعت مالك بن أنس يقول». والآيتان: القيامة 22-23؛ المطففين 15. وبخوه عند عياض 2/42 عن ابن نافع وأشهب، بلا إسناد، وفيه: «نعم، بأعينهم هاتين... بل ينظر إلى الله، أما سمعت قول موسى عليه السلام: رب أرني أنظر إليك».

وقال ابن وهب: قال مالك بن أنس: «الناس ينظرون الله عز وجل يوم القيامة بأعينهم».²⁴⁴ وذكر ابن عبد البر عن ابن القاسم: «سأل أبو السمح مالكا فقال: يا أبا عبد الله، أرى الله يوم القيامة؟ فقال: نعم، يقول الله عز وجل: {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة}، وقال لقوم آخرين: {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون}».²⁴⁵

استشهد في هذه الأجوبة بآيات النظر والحجاب. هذا استدلاله المنقول في المسألة، ولا يلزم من قصر الجواب أن تكون جميع مناقشاته فيها قد وصلت إلينا.

القدر، والرسالة إلى ابن وهب

ومن المسائل التي سئل عنها القدر. روى ابن وهب عنه: سمعت مالكا يقول لرجل: سألتني أمس عن القدر؟ قال: نعم. قال: إن الله تعالى يقول: {ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق

٢٤٤ — حلية الأولياء 6/326: «حدثنا أبو محمد بن حيان، ثنا ابن أبي داود، ثنا أحمد بن صالح، ثنا عبد الله بن وهب»، والسير 8/99 بلفظ: «ينظرون إلى الله».

٢٤٥ — الانتقاء ص 36: «وذكر أبو إسحاق بن مريّن عن عيسى بن دينار عن ابن القاسم».

القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين}، فلا بد من أن يكون ما قال الله تعالى. ²⁴⁶X

ومن سماع ابن القاسم: «وقال مالك: ما رأيت أحدا من أهل القدر إلا أهل سخافة وطيش وخفة. وقال مالك: كان عمر بن عبد العزيز يقول: لو أراد الله ألا يعصى ما خلق إبليس. قال: وهو رأس الخطايا». ²⁴⁷ وقال سعيد بن عبد الجبار: سمعت مالك بن أنس يقول: «رأيي فيهم أن يستتابوا، فإن تابوا وإلا قتلوا» — يعني القدرية. ²⁴⁸ وسئل عن تزويج القدري، فقراً: {ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم}. ²⁴⁹

٢٤٦ — حلية الأولياء 6/326: «حدثنا عبد الله بن محمد، ثنا عبد الرحمن بن أبي حاتم، ثنا يونس، ثنا ابن وهب»، والسير 8/99. والآية: السجدة 13. وفي الانتقاء ص 34 من سماع ابن القاسم: «وقال مالك: ما أبين هذه الآية على أهل القدر وأشدّها عليهم... فلا بد أن يكون ما قال».

٢٤٧ — الانتقاء ص 34، من سماع ابن القاسم.

٢٤٨ — حلية الأولياء 6/326: «حدثنا عبد الله بن محمد، ثنا أبو بكر بن أبي عاصم، قال: سمعت سعيد بن عبد الجبار يقول»، والسير 8/100. وعند الذهبي 103-8/102 عن يونس الصديقي عن أشهب عن مالك: «القدرية لا تناكحهم، ولا تصلوا خلفهم».

وأما كتابه فرسالة كتبها إلى عبد الله بن وهب في القدر والرد على القدريّة. قال القاضي عياض في باب ذكر تأليف مالك غير الموطأ: فمن أشهرها رسالته إلى ابن وهب في القدر والرد على القدريّة، وهو من خيار الكتب في هذا الباب، الدالة على سعة علمه بهذا الشأن رحمه الله. وقد حدثنا بها غير واحد من شيوخنا بأسانيدهم المتصلة إلى مالك رحمه الله تعالى... وهذا سند صحيح، مشهور الرجال، وكلهم ثقات. ²⁵⁰X

وقال الذهبي: «ولمالك رحمه الله رسالة في القدر، كتبها إلى ابن وهب، وإسنادها صحيح».²⁵¹

٢٤٩ — حلية الأولياء 6/326: «حدثنا الحسن بن سعيد بن جعفر، ثنا زكريا الساجي، ثنا سلمة بن شبيب، ثنا مروان بن محمد، قال: سئل مالك بن أنس»، والآية: البقرة 221.

٢٥٠ — ترتيب المدارك 91-2/90 (باب ذكر تأليفه غير الموطأ)؛ وساق إسنادين: الأول عن أبي محمد بن عتاب وغيره عن حاتم بن محمد عن أبي محمد بن دثير الطليطي... عن محمد بن سحنون عن عبد العزيز بن يحيى القرشي عن ابن وهب، والثاني عن القاضي أبي علي الصديقي... عن أبي محمد بن أبي زيد عن سعدون بن أحمد الخولاني عن عبد الرحمن عن ابن وهب. وذكر الرسالة في 1/80-81، وذكر في 6/207 أن ابن أبي زيد احتج بها على بعض من انتحل القول بالقدر.

٢٥١ — السير 8/88.

صحح عياض والذهبي نسبة الرسالة إلى مالك. وتحفظ الحاشية حدود هذا النقل، أما أقوال العقوبات المتقدمة فبقي أخباراً تاريخية في مواضعها.

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

وكان مالك يرى الطعن في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خروجاً عما وصف الله به المؤمنين، ويستدل عليه بالقرآن. قال سوار بن عبد الله العنبري، عن أبيه:

قال مالك بن أنس: من تنقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو كان في قلبه عليهم غل، فليس له حق في فيء المسلمين. ثم تلا قوله تعالى: {ما أفاء الله على رسوله} حتى أتى قوله: {والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا} الآية. فمن تنقصهم أو كان في قلبه عليهم غل فليس له في فيء حق. ²⁵²X

ورواه معن بن عيسى عنه بنحوه: «ليس لمن سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في فيء حق، قد قسم الله الفيء على

٢٥٢ — حلية الأولياء 6/327: «حدثنا إبراهيم بن عبد الله، ثنا محمد بن إسحاق، ثنا سوار بن عبد الله العنبري، ثنا أبي». والآيات: الحشر 7-10.

ثلاثة أصناف... وإنما الفيء لهؤلاء الثلاثة الأصناف».²⁵³ وقال رسته أبو عروة: «كنا عند مالك فذكروا رجلا ينتقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرأ مالك هذه الآية: {محمد رسول الله والذين معه أشداء} حتى بلغ: {يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار}، فقال مالك: من أصبح في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته الآية».²⁵⁴ وأما التفضيل بينهم فقد قال عبد العزيز بن أبي حازم: «سألت مالكا فيما بيني وبينه: من تقدم بعد رسول الله؟ قال: أقدم أبا بكر وعمر. لم يزد على هذا».²⁵⁵ وروى الزبير بن بكار عن ابن أبي أويس عن مالك: «ليس من أمر الناس الذي مضوا عليه أن

٢٥٣ — الانتقاء ص 36: «قال: ونا أحمد بن سعيد الفهري، قال: نا إبراهيم بن المنذر، قال: نا معن بن عيسى، قال: سمعت مالكا يقول:» في المطبوع «الفيء» و«وانما». والآيات: الحشر 8-10.

٢٥٤ — حلية الأولياء 6/327: «حدثنا أبو محمد بن حيان، ثنا إسحاق بن أحمد، ثنا رسته أبو عروة — رجل من ولد الزبير — قال:». والآية: الفتح 29.

٢٥٥ — الانتقاء ص 35: «قال: ونا إسماعيل بن إسحاق القاضي، قال: نا أبو مصعب، قال: نا عبد العزيز بن أبي حازم».

يفاضلوا بين الناس».²⁵⁶ وذكر القاضي عياض عن ابن القاسم عنه: «ما أدركت أحداً إلا وهو يرى الكف بين عثمان وعلي، ولا شك في أبي بكر وعمر أنهما أفضل من غيرهما».²⁵⁷ وقال أشهب: قال مالك: «لا ينبغي الإقامة بأرض يكون العمل فيها بغير الحق والسب للسلف».²⁵⁸

جمعت الأخبار سلامة القلب للصحابة، وتقديم أبي بكر وعمر، والتوقف في بعض أسئلة التفضيل. ويقرأ كل جواب بلفظه وسؤال صاحبه، من غير أن يحول إلى أكثر مما قال.

حدود النسبة: ما لا نحمّله على مالك

مر حكم الذهبي على رسالة الآداب المنسوبة إلى مالك إلى هارون الرشيد. ونقل عياض أيضاً اعتراض العلماء على طريقها ومحتواها:

٢٥٦ — الالتقاء ص 35-36: «قال: وذكر الزبير عن إسماعيل بن أبي أويس عن مالك بن أنس»؛ في المطبوع «الذي».

٢٥٧ — ترتيب المدارك 2/45، بلا إسناد؛ وفيه: «زاد ابن وهب عنه: وعلى هذا مضى الناس»؛ والسير 8/106، وفيه: «قال ابن القاسم: يريد التفضيل بينهما».

٢٥٨ — الالتقاء ص 36: «قال: ونا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، قال: أنا أشهب بن عبد العزيز».

قال أبو عبد الله بن عتاب: هذا الإسناد وهم، ولا شك في سقوط رجل محدث منه. وقد أنكرها بعض مشائخنا: إسماعيل القاضي، والأبهري، وأبو محمد بن أبي زيد، وقالوا: إنها لا تصح، وإن طريقها لمالك ضعيف، وفيه أحاديث لا نعرفها. قال الأبهري: فيها أحاديث منكرة تخالف أصوله. قالوا: وأشياء فيها لا تعرف من مذهب مالك ورأيه. وقد أنكرها أصبغ بن الفرغ أيضاً، وحلف ما هي من وضع مالك.²⁵⁹ X

ومن هذا الباب ما يروى عنه بأسانيد فيها من لا يُحتج به. ذكر الذهبي عن ابن عدي بإسناده إلى حبيب كاتب مالك، قال: حدثني مالك، قال: «يتنزل ربنا تبارك وتعالى أمره، فأما هو فدائم لا يزول». ثم قال الذهبي: «قلت: لا أعرف صالحاً، وحبيب مشهور، والمحفوظ عن مالك رحمه الله رواية الوليد بن مسلم، أنه سأل عن أحاديث الصفات، فقال: أمرها كما جاءت، بلا تفسير. فيكون للإمام في ذلك قولان إن صحت رواية حبيب».²⁶⁰

٢٥٩ — ترتيب المدارك 2/92-93 (باب ذكر تأليفه غير الموطأ)؛ في المطبوع «مشائخنا». وقول الذهبي في السير 8/89 تقدم في الفصل الثالث عشر (الحاشية 174).

٢٦٠ — السير 8/105: «وقال ابن عدي: حدثنا محمد بن هارون بن حسان، حدثنا صالح بن أيوب، حدثنا حبيب بن أبي حبيب، حدثني مالك... قال صالح: فذكرت ذلك ليحيى بن بكير، فقال: حسن والله، ولم أسمع من مالك». وذكره عياض 2/44 بلا

وحبيب هذا — وهو حبيب بن أبي حبيب، ويقال ابن رزيق،
الذي كان يقرأ للناس على مالك — قال فيه أحمد بن حنبل:
«ليس بثقة»، وقال: «كان حبيب يحيل الحديث ويكذب»، وقال
أبو حاتم: «متروك الحديث، روى عن ابن أخي الزهري أحاديث
موضوعة».²⁶¹

وجود لفظ في كتاب يحمل اسم مالك لا يكفي لنسبته إليه؛ ففي
هذا الطريق ناقل تكلم فيه الأئمة بشدة، وقد ميز الذهبي بينه وبين
المحفوظ عنده من رواية الوليد.

ومن الباب أيضاً خبر رواه ابن عدي بإسناده إلى ابن القاسم، قال:
سألت مالكا عما حدث بأحاديث ذكرها — منها حديث: «إن
الله خلق آدم على صورته» — «فأنكر مالك ذلك إنكارا شديدا،
ونهى أن يحدث بها أحد. فقليل له: إن ناسا من أهل العلم يتحدثون
به. فقال: من هو؟ قيل: ابن عجلان، عن أبي الزناد. قال: لم يكن

إسناده: «وسئل عن حديث التنزيل: ينزل أمره كل سحر، وأما هو دائم فلا يزول».

٢٦١ — الجرح والتعديل 3/100 (حبيب بن رزيق كاتب مالك): عن عبد الله بن
أحمد عن أبيه، وسؤال ابن أبي حاتم أباه. وذكر ابن سعد في ترجمة مالك: «وكان له
كاتب قد نسخ كتبه يقال له: حبيب يقرأ للجماعة» (القسم المتمم ص 442-443).

ابن عجلان يعرف هذه الأشياء، ولم يكن عالماً». ²⁶² قال الذهبي: «قلت: أنكر الإمام ذلك، لأنه لم يثبت عنده، ولا اتصل به، فهو معذور، كما أن صاحبي الصحيحين معذوران في إخراج ذلك — أعني الحديث الأول والثاني — لثبوت سندهما». ²⁶³

هذا تفسير الذهبي لإنكار مالك: لم يثبت الخبر عنده، وثبت بعضه عند غيره. يبقى التفسير من كلام الذهبي، ولا ينسب إلى مالك تعليل لم ينطق به في الرواية.

وذكر عياض والذهبي جزءاً في غريب القرآن من طريق خالد بن عبد الرحمن المخزومي. ²⁶⁴ وقد قال أبو حاتم في خالد: «هو ذاهب

٢٦٢ — السير 8/103-104: «أبو أحمد بن عدي: حدثنا أحمد بن علي المدائني، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن جابر، حدثنا أبو زيد بن أبي الغمر، قال: قال ابن القاسم»، وقال الذهبي: «رواها مقدم الرعيني عن ابن أبي الغمر والحارث بن مسكين، قالوا: حدثنا ابن القاسم». والأحاديث الثلاثة المذكورة في الخبر: «إن الله خلق آدم على صورته»، و«إن الله يكشف عن ساقه»، و«أنه يدخل يده في جهنم حتى يخرج من أراد». وعند عياض 2/44 بلا إسناد: «وقال الوليد بن مسلم: سألت مالكا عن هذه الأحاديث فقال: أقرأها كما جاءت. فقيل له: إن ابن عجلان يحدث بها، فقال: لم يكن من الفقهاء».

٢٦٣ — السير 8/104؛ وتام كلامه: «وأما الحديث الثالث فلا أعرفه بهذا اللفظ».

الحديث، تركوا حديثه». ²⁶⁵ فلا يعتمد هذا الطريق وحده في نسبة تفسير إلى مالك. وكذلك تفحص طرق السماع والرسائل كل في موضعها، ولا تمنح صحة عامة لمجرد حملها اسمه.

«خير أمور الدين ما كان سنة»

وأختم هذا الفصل بكلمتين له تجمعان ما تفرق فيه. قال ابن وهب: سمعت مالكا يقول: «إن حقا على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، وأن يكون متبعا لأثر من مضى قبله». ²⁶⁶ وذكر ابن عبد البر والقاضي عياض أنه كان كثيرا ما يتمثل بقول الشاعر:

وخير أمور الدين ما كان سنة ... وشر الأمور المحدثات البدائع ²⁶⁷

X

٢٦٤ - ترتيب المدارك 93/2-94؛ والسير 8/89: «وله جزء في التفسير، يرويه خالد بن عبد الرحمن الخزومي».

٢٦٥ - الجرح والتعديل 3/342.

٢٦٦ - حلية الأولياء 6/324: «حدثنا محمد بن إبراهيم، ثنا محمد بن علي بن أبي الصغير، ثنا يونس بن عبد الأعلى، ثنا ابن وهب»، والسير 107/8-108 بزيادة.

٢٦٧ - الانتقاء ص 36: «وكان مالك رحمه الله كثيرا ما يتمثل بقول الشاعر»، وترتيب المدارك 2/38: «كان مالك كثيرا ما يتمثل».

تظهر في هذه الأجوبة عنايته بما يقول في الدين وتحفظه من
الخصومة. حملها عنه أصحابه، وبقيت مع علم الحديث والفقہ وجوهاً
متصلة من حياة عالم المدينة.

الباب الخامس — الرحيل والأثر

الفصل السادس عشر — المرض والوفاة

مرض مالك في آخر عمره، وحفظ أهل بيته خبراً مما قاله عند الموت. توفي سنة تسع وسبعين ومئة. نتقدم هنا رواية البيت، وتبين الحواشي ما لم يثبت من الأخبار التي أضافتها كتب المناقب.²⁶⁸

«اشتكى أياماً يسيرة»

قال ابن سعد:

قال: أخبرنا إسماعيل بن عبد الله بن أبي أويس، قال: اشتكى مالك بن أنس أياماً يسيرة، فسألت بعض أهلنا عما قال عند الموت، فقال: تشهد ثم قال: {لله الأمر من قبل ومن بعد}. وتوفي صبيحة أربع عشرة من شهر ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة، في خلافة هارون. وصلى عليه عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وهو ابن زينب بنت سليمان بن علي، بأمه كان يعرف، يقال: عبد الله بن زينب،

٢٦٨ — السير 8/132. وباب عياض: ترتيب المدارك 146/2-149 («باب ذكر وفاة مالك رحمه الله واحتضاره ومراي دلت على فضله عند الله تعالى»)، وأكثره منامات لم ندخل منها شيئاً.

وكان يومئذ واليا على المدينة، فصلى على مالك في موضع الجنائز،
 ودفن بالبقيع، وكان يوم مات ابن نحس وثمانين سنة.²⁶⁹ X
 ثم قال ابن سعد: «فذكرت ذلك لمصعب بن عبد الله الزيري،
 فقال: أنا أحفظ الناس لموت مالك، مات في صفر سنة تسع
 وسبعين ومائة».²⁷⁰ وقال: «أخبرنا معن بن عيسى، قال: رأيت
 الفسطاط على قبر مالك بن أنس. وكان مالك ثقة مأمونا ثبتا ورعا
 فقيها عالما حجة».²⁷¹

٢٦٩ — ابن سعد، القسم المتمم لتابعي أهل المدينة، ص 443-444؛ في المطبوع
 «فقال تشهد» بالإفراد، وفي رواية ابن عبد البر عن الطبري عن ابن سعد (الانتقاء
 ص 44-45) والذهبي (السير 8/130؛ تاريخ الإسلام 4/731) والمزي (تهذيب الكمال
 27/119): «قالوا». والآية: الروم 4. وما بعد «في خلافة هارون» إلى آخر الخبر خارج
 علامتي التنصيص في المطبوع، فهو من سياق ابن سعد لا من لفظ ابن أبي أويس. وفي
 الانتقاء ص 45: «كان أمير المدينة يومئذ واليا عليها لهارون».

٢٧٠ — ابن سعد، القسم المتمم ص 444؛ والانتقاء ص 45؛ وتهذيب الكمال
 27/119؛ والسير 8/130 بلفظ: «بل مات في صفر، فأخبرني معن بن عيسى بمثل
 ذلك».

٢٧١ — ابن سعد، القسم المتمم ص 444؛ والانتقاء ص 45: «قال ابن سعد: وأخبرني
 معن بن عيسى بمثل ذلك، وقال: رأيت الفسطاط على قبر مالك ابن أنس»؛ وتهذيب

لم ينسب ابن أبي أويس سماع الكلمات الأخيرة إلى نفسه؛ قال إنه سأل بعض أهله عنها. وفي الرواية أنه تشهد ثم قرأ الآية. وتختلف شهادة مصعب عن روايته في شهر الوفاة؛ فيبقى هذا الخلاف بين أخبار من أدركوا مالكا.

تاريخ الرحيل

نص ابن بكير وخليفة بن خياط والقعني على وفاته سنة تسع وسبعين ومئة.²⁷²،²⁷³،²⁷⁴ ورجح عياض هذا التاريخ، وقال الذهبي إن الأخبار تواترت به، ورد الأقوال المخالفة.²⁷⁵،²⁷⁶

٢٧٢ - الفسوي، المعرفة والتاريخ 1/170 (حوادث سنة تسع وسبعين ومئة).

٢٧٣ - خليفة بن خياط، الطبقات ص 275 (ط. أكرم ضياء العمري، دار طيبة؛ وفي ط. سهيل زكار ص 479، رقم 2479: «مالك بن أنس بن مالك بن عامر»؛ وتاريخ خليفة ص 451 (ط. العمري، حوادث سنة تسع وسبعين ومئة). ونقله ابن عبد البر في الانتقاء ص 45 بلفظ: «قال خليفة بن خياط: مالك بن أنس بن أبي عامر من ذي أصبح من حمير يكنى أبا عبد الله مات سنة تسع وسبعين ومئة». وقال البخاري فيما رواه عنه المزي (تهذيب الكمال 12/285، في ترجمة سلام بن سليم أبي الأحوص): «حدثني عبد الله بن أبي الأسود، قال: مات حماد بن زيد، وأبو الأحوص، ومالك بن أنس سنة تسع وسبعين يعني ومئة».

٢٧٤ - تاريخ الإسلام 4/731: «قال الرمادي: حدثنا القعني، وسئل: كم أتى على مالك»؛ وتمامه: «وعرضت عليه سنة إحدى وستين»؛ والسير 8/130.

٢٧٥ - ترتيب المدارك 1/118-119؛ في المطبوع «توفي».

٢٧٦ - السير 8/131.

أما الشهر واليوم فاختلفت فيهما الأخبار. أكثر ما جمعه عياض
يجعل الوفاة في ربيع الأول، مع اختلاف في يومه، وجعلها
مصعب الزيري في صفر. وذكر عياض أن المرض دام اثنين
وعشرين يوماً.²⁷⁷،²⁷⁸

تحفظ رواية ابن أبي أويس وصف المرض بأنه «أياماً يسيرة». لا
تؤلف من الألفاظ المختلفة وصفاً يومياً واحداً لأيامه الأخيرة.

كم كان عمره؟

وجاءت في عمره أقوال: خمس وثمانون عند ابن سعد، وأربع
وثمانون في رواية ابن بكير، وتسع وثمانون فيما سمعه القعني،

٢٧٧ — ترتيب المدارك 1/119؛ في المطبوع «ربيع الأول» و«لعشر مصت منه». وفيه أيضاً قول أبي علي البصري في «المغرب»: «يوم الأحد لثلاث خلون من هذا الشهر»، وقول حبيب ومطرف: سنة ثمانين، وقولُ نُسب إلى الفزاري بسنة أخرى قال فيه عياض: «وهذا وهم والأول هو الصحيح». وساق الذهبي الأقوال في السير 8/130 وتاريخ الإسلام 4/731، وقال: «واتفقوا على سنة تسع».

٢٧٨ — ترتيب المدارك 2/146؛ والسير 8/130 عن عياض؛ والديباج 1/133.

وتسعون عند الواقدي.²⁷⁹،²⁸⁰،²⁸¹،²⁸² وجمع الذهبي أقوالاً أخرى.²⁸³ يتصل هذا الاختلاف بما تقدم في سنة مولده. كان قد جاوز الثمانين، ومضى أكثر عمره بين التعلم والتعليم. لا يتوقف فهم امتداد هذا العمل على الجزم بعمر لم تتفق فيه الروايات.

الغسل والصلاة والدفن

ذكر القاضي عياض — بلا إسناد — تفصيلاً تجهيزه:

-
- ٢٧٩ — ابن سعد، القسم المتمم ص 444.
- ٢٨٠ — المعرفة والتاريخ 1/170، عقب قول ابن بكير؛ وظاهر السياق أنه تنمة كلامه أو من كلام الفسوي.
- ٢٨١ — تاريخ الإسلام 4/731؛ والسير 8/130.
- ٢٨٢ — تهذيب الكمال 27/119: «قال الواقدي: مات بالمدينة سنة تسع وسبعين ومئة وهو ابن تسعين سنة».
- ٢٨٣ — السير 8/131-132، عن القاضي عياض؛ وأصله في ترتيب المدارك 1/119-120. وقال ابن خلكان: «فعاش أربعاً وثمانين سنة» على قوله بمولده سنة خمس وتسعين (وفيات الأعيان 4/137).

وغسله ابن كنانة وابن أبي زنبر، وابنه يحيى وكاتبه حبيب يصبان عليه الماء. ونزل في قبره جماعة، وأوصى أن يكفن في ثياب بيض، وأن يصلى عليه في موضع الجنائز. فصلى عليه عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن علي بن عبد الله بن عباس، وكان خليفة أبيه على المدينة، ومشي في جنازته وحمل نعشه، وبلغ كفنه خمسة دنانير. ^{X 284}

تختلف هذه الرواية عن ابن سعد في اسم الوالي الذي صلى عليه؛ عند ابن سعد عبد الله بن محمد، وعند عياض عبد العزيز بن محمد. وورد عند الفسوي تولية الأب ابنه على المدينة. ²⁸⁵ أما موضع الدفن فقال الذهبي: «ودفن بالبقيع اتفاقاً، وقبره مشهور يزار». ²⁸⁶

٢٨٤ — ترتيب المدارك 2/146، بلا إسناد؛ وعنه الديباج 1/133-134؛ والسير 8/131. وفي الديباج «ابن أبي الزبير» بدل «ابن أبي زنبر».

٢٨٥ — المعرفة والتاريخ 1/170 (حوادث سنة ثمان وسبعين ومائة): «وولي محمد مكة فأقام بها. ووجه على المدينة العباس ابنه، فأقام [الحج] للناس محمد بن إبراهيم وهو يومئذ عامل مكة والمدينة واليمن» (ما بين المعقوفين من المحقق). وأما اسم الوالي فعند ابن سعد (ص 443-444) والمزي (27/119) والذهبي (السير 8/130؛ تاريخ الإسلام 4/731): «عبد الله بن محمد بن إبراهيم... ويعرف بأمه»، وعند عياض (2/146) والديباج (1/133): «عبد العزيز».

ما قيل في مرضه: خبران لا إسناد لهما

بقي خبران يذكّرهما كلُّ من كتب في وفاة مالك، ولم نجد لهما في المصادر التي فتحناها إسناداً. الأول عن بكر بن سليمان الصواف:

دخلنا على مالك بن أنس في العشية التي قبض فيها، فقلنا له: يا أبا عبد الله، كيف تجدك؟ قال: ما أدري كيف أقول لكم، إلا أنكم ستعاينون غداً من عفو الله ما لم يكن في حساب. ثم ما يرحنا حتى أغمضناه رحمه الله. ²⁸⁷X

والثاني عن القعني، ذكره ابن خلكان عن الحميدي في «جدوة المقتبس»:

دخلت على مالك بن أنس في مرضه الذي مات فيه، فسلمت عليه، ثم جلست فرأيت يميني، فقلت: يا أبا عبد الله، ما الذي يبكيك؟ قال: فقال لي: يا ابن قعنب، وما لي لا أبكي، ومن أحق بالبكاء مني؟ والله لوددت أني ضربت لكل مسألة أفيت فيها رأيي

٢٨٦ — السير 8/132.

٢٨٧ — الديباج 1/133، بلا إسناد؛ وهو عند عياض 2/146 بلفظ فيه تحريف ظاهر في المطبوع: «ما نقول إلا أنكم ستعاينون غداً من عبد الله من لم يكن في حساب».

بسوط سوط، وقد كانت لي السعة فيما قد سبقت إليه، وليتني لم
أفت بالرأي. أو كما قال. X^{288}

لم يثبت الخبران اللذان تروى بهما خاتمة حياته. وتصل أخبار
الرحيل الأخرى بما حفظ من مرضه ووفاته، ثم تمضي السيرة إلى
الرجال الذين حملوا علمه.

ما ترك

وحفظت الكتب أخباراً عن سعة معاشه ومتاع داره. ذكر
عياض عن ابن القاسم كثرة عمائم، ونقل الذهبي عن ابن أبي
أويس بيع ما في المنزل بما ينيف على خمسمئة دينار، وأورد

٢٨٨ - وفیات الأعیان 4/137-138: «وحكى الحافظ أبو عبد الله الحميدي في
كتاب جذوة المقتبس قال: حدث القعني قال:» ولم نفتح الجذوة، ولم نجد الخبر في
المصادر الأخرى المفتوحة.

عياض مقداراً آخر للنقد الذي تركه.²⁸⁹،²⁹⁰،²⁹¹ هذه أرقام
منقولة بطرقها، وقال الذهبي في وصف حاله:

قلت: قد كان هذا الإمام من الكبراء السعداء، والسادة العلماء،
ذا حشمة، وتجل، وعبيد، ودار فاخرة ونعمة ظاهرة، ورفعة في
الدنيا والآخرة، كان يقبل الهدية، ويأكل طيباً، ويعمل صالحاً.²⁹²

X

٢٨٩، ٢٩٠ — ترتيب المدارك 2/160 (باب في تركة مالك بن أنس)، وفيه خبر
ابن أبي أورس بلفظ: «جميع ما في منزلك يوم مات رحمه الله تعالى من منصات وبرادع
وسط ومخادد محشوة بريش وغير ذلك، ينيف على خمسمائة دينار» (كذا «منزلك» في
المطبوع)؛ ولفظ الذهبي في السير 8/132؛ وعند ابن فرحون 1/134: «بيع ما في منزل
مالك». والمنصات والبرادع والمخادد: من الفرش والوسائد.

٢٩١ — ترتيب المدارك 2/160: «قال أبو عمر: وترك من الناض ألفي دينار وستمائة
وتسعا وعشرين ديناراً، وألف درهم. فاجتمع في تركته ثلاثة آلاف وثلاثمائة ونيف»؛ في
المطبوع «ألفي» و«والف». ولم نتحقق من المراد بأبي عمر هنا، وعند الذهبي 8/133:
«قال أبو عمرو: ترك من الناض ألفي دينار وست مائة دينار، وسبعة وعشرين ديناراً»؛
وعند ابن فرحون 1/134: «ثلاثة آلاف دينار وستمائة دينار ونيف». والناض: العين من
الذهب والفضة.

٢٩٢ — السير 8/133.

وذكر ابن فرحون بلا إسناد في الموضع خبر إخراج كتبه بعد دفنه، وفيها من حديث ابن شهاب وأهل المدينة ما لم يسمعه منه بعض جلسائه.²⁹³

توافق أخبار التجميل والطيب ما مر من هيئة مجلسه. أما تعيين ما في صناديق كتبه وسبب ترك التحديث بكل ما فيها، فلا يثبت بهذا الخبر غير المسند؛ فلا نحمله كله على سبب واحد.

ما قيل فيه

رثاه الناس، وجمع ابن عبد البر طرفاً من ذلك. ومنه ما رواه عن أصبغ بن الفرج «أنه قال: رثت مالكا امرأة فقالت»:

بكيت بدمع واكف فقد مالك ... ففي فقدته ضاقت علينا المسالك
ومالي لا أبكي عليه وقد بكت ... عليه الثريا والنجوم الشوابك
حلفت بمن أهدت قریش وحللت ... صبيحة عشر حين تقضى

٢٩٣ — الديباج 1/113، بلا إسناد؛ في المطبوع «بن شهاب». وقول مالك: «لقد سمعت من ابن شهاب أحاديث كثيرة ما حدثت بها قط»؛ السير 8/107 («قال ابن عدي في مسند مالك بإسناد صح عن ابن وهب»)؛ والديباج 1/112 عن ابن وهب. و«لم يكن العمل عليها فتركتها»: الحلية 6/322 (تقدم في الفصل الرابع).

المناسك لنعم وعاء الفقه والعلم مالك ... إذا عز مفقود من الناس
هالك^{X 294}

وقدّم القاضي عياض على ما قيل فيه من الشعر بيتي عبد الله بن
المبارك، وقال الذهبي: «وما أحسن قول ابن المبارك فيه»:
صموت إذا ما الصمت زين أهله ... وفتاق أبكار الكلام المختم وعى
ما وعى القرآن من كل حكمة ... وسيطت له الآداب باللحم
والدم^{X 295}

وختم ابن عبد البر أخبار مالك بكلمة تختار من كثرة ما حكي عنه
ما يستحق البقاء: «ألف الناس في فضائل مالك وأكثروا، وأتوا بما
لا فضيلة في بعضه، حشوا بها كتبهم، فرأيت الاختصار منها على

٢٩٤ - الانتقاء ص 46: «ومما رثي به رحمه الله ما رويناه عن أصبغ بن الفرّج أنه قال:
رثت مالكا امرأة فقالت»؛ في المطبوع «ومالى». وأنشدها عياض 2/161 بألفاظ تختلف
يسيراً («حلقت بما أهدت قريش وجلت»).

٢٩٥ - السير 8/133 («وما أحسن قول ابن المبارك فيه»); وترتيب المدارك
2/161 (باب ما قيل في مالك من الشعر في حياته وبعد وفاته): «من مشهور ذلك قول
ابن المبارك»، وفيه: «ونيّطت الآداب باللحم والدم». والمختم: المختوم؛ وسيطت: خلّطت.

عيونها أولى من الإثثار». تبقى تلك العيون طريقاً إلى الرجل؛ علمه
الذي حمله، ومجلسه الذي أدب أهله، وأثره الذي جاوز عمره.²⁹⁶
انتهى العمر، وبقي الكتاب الذي قرئ عليه، والأسئلة التي حفظوا
أجوبتها، والطلاب الذين حملوا علمه وأدبه. من أيدي هؤلاء يبدأ
طريق آخر للأثر.

الفصل السابع عشر — ما بعد الرحيل: كيف صار الرجل مذهباً، وما الذي اختلف فيه بعده

رحل مالك، وخرج كتّابه مع الرواة إلى بلاد بعيدة عن المدينة. تجمع أجيال لاحقة مسائله وتشرحها وتقضي وتفتي بها؛ ثم تنظر في أقواله وما بني عليها. بقي للمعلم علمه، ولأصحاب المدرسة اجتهادهم الذي اتسع بعده.

خريطة عياض: «ينبوع هذا المذهب بالمدينة»

ومن أوفى من رسم خريطةً لانتشار مذهب مالك، فيما وصلنا، القاضي عياض في مقدمة «ترتيب المدارك»، وهو قاضٍ مالكي يكتب في القرن السادس، يحصي بلاد مذهبه ورجاله. قال:

وذكرنا من بلدانهم وأوطانهم ورجلهم وقضاتهم إذ كان ينبوع هذا المذهب بالمدينة فيها تفجر ومنها انتشر، فكانت المدينة كلها على ذلك الرأي وخرج منها إلى جهات من الحجاز واليمن فانتشر هنالك بأبي قرّة القاضي ومحمد بن صدقة الفرقي وأمثالهم، واستقر ببلاد العراق بالبصرة فغلب عليها بآبن مهدي والقعني وغيرهما ثم باتباعهم من ابن المعدل، ويعقوب بن شيبّة آل حماد بن زيد إلى أن دخلها بعض الشافعية فتشارك المذهبان جميعاً إلى وقتنا هذا ... فدخل هذا المذهب بغداد وغيرها من بلاد العراق فانتشر بها مع غيرها

من المذاهب ولكنه غلب وفشي أيام قضاء آل حماد بن زيد وانقطع ببغداد فلم يبق له بها إمام من نحو الخمسين والاربعمائة ... وأما خراسان وما وراء العراق من بلاد المشرق فدخلها هذا المذهب أولا يحيى بن يحيى التيمي، وعبد الله بن المبارك، وقتيبة بن سعيد، فكان له هنالك أئمة على مر الأزمان ... وأما الشام فكان بها من أصحاب مالك الوليد بن مسلم وأبو مسهر ومروان بن محمد الططوي وغيرهم وغلب عليها أولا مذهب الأوزاعي ثم دخلتها المذاهب. وأما أرض مصر فأول أرض انتشر بها مذهب مالك بعد المدينة وغلب عليها وأطبق أهلها على الاقتداء به إلى أن قدم عليهم الشافعي فكان واحدا منهم فيهم ... ومذهب مالك في كل ذلك ظاهر بها غالب عليها إلى وقتنا هذا. ودخلها أئمة من أصحاب أبي حنيفة، وأما أفريقية وما وراءها من المغرب فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين، إلى أن دخل علي بن زياد وابن أشرس والبهلول بن راشد، وبعدهم أسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك فأخذ به كثير من الناس ولم يزل يفشو إلى أن جاء سخون فغلب في أيامه وفض حلق المخالفين واستقر المذهب بعده في أصحابه فشاع في تلك الأقطار إلى وقتنا هذا ... وأما أهل الأندلس فكان رأيها مذ فتحت على رأي الأوزاعي، إلى أن رحل إلى مالك زياد بن عبد الرحمن وقرعوس بن العباس والغازي ابن قيس ومن بعدهم بعلمه وأبانوا للناس فضله واقتداء الأئمة به،

فعرف حقه ودرس مذهبه إلى أن أخذ أمير الأندلس إذ ذاك هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الناس جميعاً بالتزامهم مذهب مالك وصير القضاء والفتيا عليه وذلك في عشرة السبعين ومائة من الهجرة في حياة مالك رحمه الله تعالى، وشيخ المفتين يومئذ صمصعة بن سلام إمام الأوزاعية وروايته، وقد لحق به من أصحاب مالك عدة فالتزم الناس بها هذا المذهب وحموا بالسيف عن غيره جملة.²⁹⁷ X

٢٩٧ - القاضي عياض، ترتيب المدارك 1/23-27، من مقدمة الكتاب؛ حذف من النقل ما بين علامات الحذف (أسماء شيوخه بالبصرة وتفصيل حال القيروان في دولة بني عبيد). في المطبوع: «الزاعي» وصوابه الظاهر «الأوزاعي»؛ «وَأَبْنُ أَشْرَسَ»؛ «في عشرة السبعين ومائة» والظاهر «السبعين»؛ «ودخلها شيء من مذهب داوود»؛ «في الآلِاق» والظاهر «الآفاق». وتاريخ إلزام هشام بن عبد الرحمن أهل الأندلس بمذهب مالك «في حياة مالك» مما انفرد به عياض هنا بلا إسناد. وعند المقرئ في نفح الطيب (3/230) أن أهل الأندلس «كانوا في القديم على مذهب الأوزاعي» وأن الفتوى انتقلت إلى رأي مالك «في دولة الحكم بن هشام ... برأي الحكم واختياره»، مع ذكر الخلاف في سببه؛ وفي ترجمة زياد بن عبد الرحمن شبطون (2/45) أن الأمير هشاماً أراد على قضاء قرطبة فهرب؛ ونقل المقرئ (2/10) كلمة ابن حزم الآتية. فاسم الأمير مختلف فيه بين عياض والمقرئ، ولا نزح.

ثم لخص عياض الخريطة كلها في موضع آخر من المقدمة، وهو يتكلم عن المذاهب التي بقي لها أتباع: «وسرت جميع هذه المذاهب في الآفاق فغلب مذهب مالك على الحجاز والبصرة ومصر وما والاها من بلاد أفريقية والأندلس وصقلية والمغرب الأقصى إلى بلاد من أسلم من السودان إلى وقتنا هذا وظهر ببغداد ظهورا كثيرا وضعف بها بعد أربعمئة سنة وضعف بالبصرة بعد خمسمئة سنة ... وغلب مذهب أبي حنيفة على الكوفة والعراق وما وراء النهر وكثير من بلاد خراسان إلى وقتنا ... وغلب مذهب الأوزاعي على الشام وعلى جزيرة الأندلس أولا إلى أن غلب عليها مذهب مالك بعد المائتين فانقطع ... وأما الشافعي فكثير أتباعه وظهر مذهبه ظهور مذهبي مالك وأبي حنيفة قبله وكان أول ظهوره بمصر». ثم قال: «وصار الناس اليوم في أقطار الدنيا إلى خمسة مذاهب مالكية وحنفية وشافعية وحنبلية وداودية وهم المعروفون بالظاهرية».²⁹⁸

حمل عليه رحالة ومعلمون وقضاة، ودخل السلطان في نشر المذهب في بعض البلاد. مضت هذه الأعمال في أزمنة تالية، وصار للكتاب والتلاميذ أثر يتسع بعد وفاة صاحبه.

٢٩٨ — ترتيب المدارك 1/65-67؛ في المطبوع «وحنفية» مكررة في عدّ المذاهب الخمسة، و«وكان با وبغيرها أئمة» بسقط ظاهر.

الرجال والقضاء: مصر والقيروان والأندلس والعراق

وإذا نزلنا من الخريطة إلى الرجال وجدنا في كتاب عياض نفسه، وفي كل إقليم، اسماً أو اسمين يُقال فيهما: «وعنه انتشر». في مصر، قال ابن شعبان في عثمان بن عبد الحكم: «هو أول من أدخل علم مالك مصر».²⁹⁹ وفي القيروان، قال الشيرازي في سخون: «إليه انتهت الرئاسة في العلم بالمغرب... وصنف المدونة. وعليها يعتمد أهل القيروان. وحصل له من الأصحاب ما لم يحصل لأحد من أصحاب مالك، وعنه انتشر علم مالك في المغرب»،³⁰⁰ و«ولي سخون قضاء إفريقية، سنة أربع وثلاثين ومائتين، وسنه إذ ذاك أربع وسبعون سنة. فلم يزل قاضياً إلى أن مات».³⁰¹ وفي الأندلس، قال ابن عبد البر في يحيى بن يحيى: «وقدم الأندلس بعلم كثير، فعاد فتياً الأندلس بعد عيسى بن دينار إلى رأيه، وقوله»؛ «وبه ويعيسى بن دينار، انتشر مذهب مالك، وانتمى الناس إلى

٢٩٩ — ترتيب المدارك 3/52، في ترجمة عثمان بن عبد الحكم الجذامي «من أهل مصر»؛ وقال ابن أبي حاتم فيه: «شيخ ليس بالمتقن»، كما نقله عياض في الموضع نفسه.

٣٠٠ — ترتيب المدارك 4/51-52، في ترجمة سخون؛ والفقرة مكررة في النص الإلكتروني في الموضعين.

٣٠١ — ترتيب المدارك 4/55 («ذكر ولايته القضاء»).

سماع الموطأ، من يحيى. وأعجبوا بتقليده، فقلدوه، وتبعوه».³⁰²
وروى عياض عن أحمد بن خالد:

لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخلت الإسلام من الخطوة، وعظم القدر وجلالة الذكر، ما أعطيه يحيى بن يحيى. وكان الأمير عبد الرحمان بن الحكم يبجله، بتبجيله الأدب، ولا يرجع عن قوله، ويستشيريه في جميع أمره، وفيمن يوليه ويعزله، فلذلك كثر القضاة في مدته. وكان يفضل بالعقل على علمه، وألح عليه الأمير عبد الرحمان في ولايته القضاء، فأبى عليه. فوكل عليه من يقعه في الجامع، وقال للناس: هذا قاضيكم. فأبى على الحكم. فقال له يحيى: إن المكان الذي أنا فيه أنفع وخير لكم مما تريدون. إنا إذا تظلم الناس من قاض أجلستموني، فنظرت لكم في أحكامه. وإن كنت قاضيا فتظلم مني كما يتظلم من القضاة من تقعدون ينظر في أحكامي؟ فكفوا عنه. X³⁰³

٣٠٢ — ترتيب المدارك 3/381، في ترجمة يحيى بن يحيى الليثي، عن أبي عمر بن عبد البر وأبي عبد الملك بن عبد البر؛ وتقدمت ترجمة يحيى من الالتقاء في الفصل الحادي عشر.

٣٠٣ — ترتيب المدارك 3/382، عن أحمد بن خالد؛ في المطبوع «عبد الرحمان».

وفي العراق، كان إسماعيل بن إسحاق القاضي، وقد «حمل من البصرة الى بغداد، وعنه انتشر مذهب مالك بالعراق ... هو أول من بسط قول مالك، واحتج به، وأظهره بالعراق».³⁰⁴ وحتى صقلية دخلها المذهب بقاض: محمد بن سليمان بن سالم القطان، «ولاه قضاء صقلية، فخرج إليها، ونشر بها علما كثيرا ... قال الشيرازي: وعنه انتشر مذهب مالك بها».³⁰⁵

وقد قال في هذا الانتشار كلمةً صريحةً رجلٌ من خارج المذهب: ابن حزم الأندلسي، الظاهري، الذي لا يرى التقليد. روي عنه أنه قال:

مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة، فإنه لما ولي قضاء القضاة أبو يوسف كانت القضاة من قبله، فكان لا يولي قضاء البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى أعمال إفريقية إلا أصحابه والمنتمين إلى مذهبه، ومذهب مالك بن

٣٠٤ — ترتيب المدارك 4/280، في ترجمة إسماعيل بن إسحاق القاضي (وفاته ببغداد سنة اثنتين وثمانين ومائتين: المدارك 4/292). وفي الموضوع نفسه كلمةٌ لقاضٍ حنفي في أثر إسماعيل على مذهب أبي حنيفة بالعراق لم تنقلها، على قاعدة الكتاب في الأئمة.

٣٠٥ — ترتيب المدارك 4/357، في ترجمة محمد بن سليمان بن سالم بن القطان؛ وخروجه إلى صقلية سنة 281 هـ ووفاته بها سنة 289 هـ.

أنس عندنا فإن يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان، مقبول القول في القضاة، فكان لا يلي قاض في أقطارنا إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا والرياسة، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به. على أن يحيى بن يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب إليه، وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم، وداعياً إلى قبول رأيه لديهم، وكذلك جرى الأمر في أفريقية لما ولي القضاء بها سخنون بن سعيد، ثم نشأ الناس على ما أنشأ³⁰⁶ X

يعرض عياض تاريخ مدرسته من داخلها، ويقرأ ابن حزم بعضه من موضع مخالف. وقد أثبتنا مقتطفات من النصين في ملحق القراءات. لا يفسر نجاح المذهب بسبب واحد، ولا تحمل جميع أفعال أتباعه على مؤسسه.

٣٠٦ - رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) 2/229، في الملحق الثالث «شذرات من الروايات التاريخية»، رقم 13، بصيغة: «سمعت الفقيه الحافظ أبا محمد علي بن أحمد يقول»؛ فهو مما رواه عنه تلميذ له، والظاهر أنه الحميدي، ولم نفتح أصل الرواية.

الأصل الذي بقي مفتوحاً

رأينا في الفصل العاشر أصرح عبارة قالها مالك في أصله: «الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن»، ورأينا جواب الليث عليه بحجة تفرق الصحابة في الأمصار. ورأينا في الفصل الثاني عشر كيف ناقش الشافعي أصل شيخه في «اختلاف مالك والشافعي»، وكيف كتب محمد بن الحسن «الحجة على أهل المدينة». ورأينا ما نقله عياض عن ابن القاسم وابن وهب: «رأيت العمل عند مالك أقوى من الحديث»، وعن ابن الماجشون: «ليعلم أنا على علم تركناه».³⁰⁷ فالمسألة إذن لم تغلق في حياة مالك، ولا أغلقت بعده؛ بل صارت هي المسألة التي يعرف بها مذهبه عند مخالفيه، ويدافع عنها أصحابه، ويحررها كل جيل بلغته. ونعرض هنا ثلاث قراءات، من ثلاثة قرون وثلاثة مذاهب وثلاثة أقطار: قراءة قاض مالكي من سبته في القرن السادس، وقراءة فقيه حنبلي من دمشق في القرن الثامن، وقراءة عالم من

٣٠٧ — انظر الفصل العاشر (رسالتا مالك والليث عن الفسوي 1/687-697) والفصل الثاني عشر (الأم 7/201 وما بعدها؛ الحجة على أهل المدينة 1/1 وما بعدها) وأقوال ابن القاسم وابن وهب وابن الماجشون وربيعة في ترتيب المدارك 1/45-46 (تقدمت في الفصل العاشر).

دهلي في القرن الثاني عشر. وليست واحدةً منها كلامَ مالك؛
فليحذر القارئ أن يخلط.

قراءة من داخل المذهب: القاضي عياض يفصل المسألة

عقد عياض في مقدمة المدارك باباً سَمَّاه «باب ما جاء عن السلف
والعلماء في الرجوع إلى عمل أهل المدينة وكونه حجة عندهم وإن
خالف الأكثر»، وجمع فيه ما مرَّ بعضه في الفصل العاشر،³⁰⁸ ثم
عقد باباً آخر سَمَّاه «باب بيان الحجة بإجماع أهل المدينة فيما هو
وتحقيق مذهب مالك»، وافتتحه بشكوى:

اعلموا أكرمكم الله أن جميع أرباب المذاهب من الفقهاء والمتكلمين
وأصحاب الأثر والنظر إلّاب واحد على أصحابنا على هذه المسألة
مخطئون لما فيها بزعمهم، محتجون علينا بما سنح لهم حتى تجاوز
بعضهم حد التعصب والتشنيع إلى الطعن في المدينة وعد مثالبها
وهم يتكلمون في غير موضع خلاف، فمنهم لم يتصور المسألة ولا
تحقق مذهبنا فتكلموا فيها على تخمين وحس، ومنهم من أخذ
الكلام فيها ممن لم يحققه عنا، ومنهم من أطالها وأضاف إلينا ما لا

٣٠٨ — ترتيب المدارك 1/44-46؛ وفي أوله: «روي أن عمر بن الخطاب رضي الله

تعالى عنه قال على المتبر: اخرج بالله على رجل روى حديثاً العمل على خلافه»، بلا

إسناد.

نقله فيها، كما فعل الصيرفي والمحامي والغزالي، فأوردوا عنا في المسألة ما لا نقله واحتجوا علينا بما يحتج به على الطاعنين على الإجماع وها أنا أفصل الكلام فيها تفصيلا لا يجد المنصف إلى بحده بعد تحقيقه سيلا وأبين موضع الاتفاق فيه والخلاف إن شاء الله تعالى. ³⁰⁹X

ثم فصل، فقسم «إجماع أهل المدينة» قسمين. الأول ما كان طريقه النقل:

فاعلموا أن إجماع أهل المدينة على ضربين، ضرب من طريق النقل والحكاية الذي تؤثره الكافة عن الكافة وعملت به عملا لا يخفى ونقله الجمهور عن الجمهور عن زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الضرب منقسم على أربعة أنواع، أولها ما نقل شرعا من جهة النبي صلى الله عليه وسلم من قول كالصاع والمد، وانه عليه الصلاة والسلام كان يأخذ منهم بذلك صدقاتهم وفطرتهم، وكالأذان والإقامة وترك الجهر بسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة والوقوف والأحباس... أو نقل إقراره عليه السلام لما شاهده منهم ولم ينقل عنه إنكاره... أو نقل تركه لأمر وأحكام لم يلزمهم إياها مع شهرتها لديهم وظهورها فيهم كتركه أخذ الزكاة من الخضروات مع علمه عليه السلام بكونها عندهم كثيرة، فهذا النوع من

إجماعهم في هذه الوجوه حجة يلزم المصير إليه ويترك ما خالفه من خبر واحد أو قياس، فإن هذا النقل محقق معلوم موجب للعلم القطعي فلا يترك لما توجهه غلبة الظنون، وإلى هذا رجع أبو يوسف وغيره من المخالفين ممن ناظر مالكا وغيره من أهل المدينة في مسألة الأوقاف والمد والصاع حين شاهد هذا النقل وتحققه، ولا يجب لمنصف أن ينكر الحجة هذا، وهذا الذي تكلم عليه مالك عن أكثر شيوخنا ولا خلاف في صحة هذا الطريق.³¹⁰

والثاني ما كان طريقه الاجتهاد، وفيه اعترف عياض بأن أصحاب مالك أنفسهم اختلفوا:

النوع الثاني: إجماعهم على عمل من طريق الاجتهاد والاستدلال، فهذا النوع اختلف فيه أصحابنا فذهب معظمهم إلى أنه ليس بحجة ولا فيه ترجيح وهذا قول كبار البغداديين منهم ابن بكير وأبو يعقوب الرازي وأبو الحسن بن المنتاب، وأبو العباس الطيالسي، وأبو الفرج، والقاضي أبو بكر الأبهري وأبو التمام، وأبو الحسن بن القصار. قالوا لأنهم بعض الأمة والحجة إنما هي لمجموعها، وهو قول

٣١٠ - ترتيب المدارك 1/47-49؛ في المطبوع «فتقلهم لهذه الأمور» والظاهر «فتقلهم»، و«بسم الله الرحمن الرحيم الله الرحمان الرحيم» بتكرار ظاهر حذف. وفي 1/50: «ولهذا قال مالك لمن ناظره في المسألة ما أدري أذان يوم ولا ليلة هذا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤذن فيه من عهده ولم يحفظ عن أحد إنكاره على مؤذن فيه».

المخالفين أجمع ... وذهب بعضهم إلى أنه ليس بحجة، ولكن يرجح به على اجتهد غيرهم ... وذهب بعض المالكية إلى إن هذا النوع حجة كالنوع الأول وحكوه عن مالك ... وأطبق المخالفون أنه مذهب مالك ولا يصح عنه كذا مطلقا. ^{X³¹¹}

ثم ردّ ما نسب إلى مالك مما لم يقله:

وكثر تحريف المخالف فيما نقل عن مالك من ذلك سوى ما قدمناه فحكى أبو بكر الصيرفي وأبو حامد الغزالي أن مالكا يقول لا يعتبر إلا بإجماع أهل المدينة دون غيره وهذا ما لا يقوله هو ولا أحد من أصحابه، وحكى بعض الأصوليين أن مالكا يرى إجماع الفقهاء السبعة بالمدينة إجماعا ... وهذا ما لم يقله مالك ولا روي عنه، وحكى بعضهم عنا إنا لا نقبل من الأخبار إلا ما صححه عمل أهل المدينة وهذا جهل أو كذب لم يفرقوا بين قولنا برد الخبر الذي في مقابله عملهم وبين من لا يقبل منه إلا ما وافقه عملهم. ^{X³¹²}

٣١١ - ترتيب المدارك 1/50-51؛ في المطبوع «وأي معصب» والظاهر «وأي مصعب»، و«محققو أئمتنا».

٣١٢ - ترتيب المدارك 1/53.

وأجاب عن أشهر ما يُعترض به على مالك، وهو قوله في حديث «البيعان بالخيار» بعد أن رواه في الموطأ: «وليس لهذا عندنا حد محدود ولا أمر معمول به» - وهو في الموطأ بلفظ: «وليس لهذا عندنا حد معروف، ولا أمر معمول به فيه» - وسمي هذا الاعتراض «أعظم تهاويلهم وأشنع تشانيهم»، ثم ذكر وجوهاً في تأويل كلمة مالك، وذكر أن ابن حبيب من أصحاب مالك قال بالحديث.³¹³ وختم الباب بما يحتاج به لمن جعل اجتهاد أهل المدينة حجة: «ما لهم من فضل الصحبة والمخالطة والملابسة والمساءلة ومشاهدة الأسباب والقرائن»، وبأن الشافعي نفسه قال ذلك في وجه: «وقد قال الشافعي مرة: إجماع أهل المدينة أحب إلي من القياس».³¹⁴

٣١٣ - ترتيب المدارك 1/53-55؛ وفيه: «وقد يكون قول مالك على طريق الترجيح لأحد الخبرين بمساعدة عمل أهل المدينة ... وقد قال بحديث البيعان بالخيار والعمل به كثير، من أصحابنا: ابن حبيب». وقول مالك في الموطأ عقب الحديث نقله عياض بلفظ: «وليس لهذا عندنا حد محدود ولا أمر معمول به»؛ وقول على الموطأ برواية يحيى (كتاب البيوع، باب بيع الخيار، رقم 79؛ 671/2-672 بترقيم عبد الباقي، ط. دار إحياء التراث العربي 1406) فلفظه فيه: «وليس لهذا عندنا حد معروف، ولا أمر معمول به فيه»؛ فالفرق «معروف/محدود» وزيادة «فيه».

٣١٤ - ترتيب المدارك 1/57-58؛ وعنوان الباب التالي في 1/59.

قراءة من خارج المذهب: ابن تيمية والمراتب الأربع

وبعد عياض بنحو قرنين، سُئل ابن تيمية، الفقيه الحنبلي الدمشقي، «عن صحة أصول مذهب أهل المدينة ومنزلة مالك المنسوب إليه مذهبهم»، فأجاب برسالة طويلة طُبعت في مجموع فتاواه،³¹⁵ وفيها ما صار بعده أشهر تقسيم للمسألة:

والتحقيق في مسألة إجماع أهل المدينة أن منه ما هو متفق عليه بين المسلمين؛ ومنه ما هو قول جمهور أئمة المسلمين؛ ومنه ما لا يقول به إلا بعضهم. وذلك أن إجماع أهل المدينة على أربع مراتب. الأولى ما يجري مجرى النقل عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم. مثل نقلهم لمقدار الصاع والمد؛ وكترك صدقة الخضرافات والأحباس فهذا مما هو حجة باتفاق العلماء. أما الشافعي وأحمد وأصحابهما فهذا حجة عندهم بلا نزاع كما هو حجة عند مالك. وذلك مذهب أبي حنيفة وأصحابه. قال أبو يوسف - رحمه الله - وهو أجل أصحاب أبي حنيفة وأول من لقب قاضي القضاة - لما اجتمع بمالك

٣١٥ - ابن تيمية، مجموع الفتاوى (جمع عبد الرحمن بن قاسم؛ ط. مجمع الملك فهد، المدينة النبوية 1416هـ) 20/294-396؛ نص السؤال في 20/294: «وسئل شيخ الإسلام ... عن صحة أصول مذهب أهل المدينة ومنزلة مالك المنسوب إليه مذهبهم في الإمامة والديانة». ونقلنا منها موضع المراتب الأربع فقط (20/303-311).

وسأله عن هذه المسائل وأجابه مالك بنقل أهل المدينة المتواتر
رجع أبو يوسف إلى قوله وقال: لو رأى صاحبي مثل ما رأيت
لرجع مثل ما رجعت.³¹⁶ X

ثم ذكر المرتبة الثانية: «العمل القديم بالمدينة قبل مقتل عثمان بن
عفان فهذا حجة في مذهب مالك وهو المنصوص عن الشافعي قال
في رواية يونس بن عبد الأعلى: إذا رأيت قدماء أهل المدينة على
شيء فلا تتوقف في قلبك ريباً أنه الحق».³¹⁷ والثالثة: «إذا
تعارض في المسألة دليلان كحديثين وقياسين جهل أيهما أرحح
وأحدهما يعمل به أهل المدينة؛ ففيه نزاع. فذهب مالك والشافعي
أنه يرحح بعمل أهل المدينة. ومذهب أبي حنيفة أنه لا يرحح بعمل
أهل المدينة»، وذكر أن لأصحاب أحمد وجهين، وأن من كلام

٣١٦ - مجموع الفتاوى 20/303-304. وخبر أبي يوسف ومالك في الصاع والمد
والأوقاف وزكاة الخضروات ساقه ابن تيمية في 20/306-307 بلا إسناد؛ وتقدم في
الفصل الثاني عشر خبر مالك وأبي يوسف في الوقف عند الخليفة من السير 8/109-
110.

٣١٧ - مجموع الفتاوى 20/308.

أحمد: «إذا رأى أهل المدينة حديثاً وعملوا به فهو الغاية».³¹⁸ ثم
الرابعة:

وأما المرتبة الرابعة فهي العمل المتأخر بالمدينة فهذا هل هو حجة
شرعية يجب اتباعه أم لا؟ فالذي عليه أئمة الناس أنه ليس بحجة
شرعية. هذا مذهب الشافعي وأحمد وأبي حنيفة وغيرهم. وهو قول
المحققين من أصحاب مالك كما ذكر ذلك الفاضل عبد الوهاب في
كتابه أصول الفقه وغيره ذكر أن هذا ليس إجماعاً ولا حجة عند
المحققين من أصحاب مالك وربما جعله حجة بعض أهل المغرب من
أصحابه وليس معه للأئمة نص ولا دليل بل هم أهل تقليد. قلت:
ولم أر في كلام مالك ما يوجب جعل هذا حجة وهو في الموطأ إنما
يذكر الأصل المجمع عليه عندهم فهو يحكي مذهبهم وتارة يقول:
الذي لم يزل عليه أهل العلم ببلدنا يصير إلى الإجماع القديم وتارة لا
يذكر.³¹⁹

واستشهد لذلك بالخبر الذي مرّ نقده في الفصل الثامن: «وقد
عرض عليه الرشيد أو غيره أن يحمل الناس على موطئه فامتنع من
ذلك وقال إن أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تفرقوا

٣١٨ - مجموع الفتاوى 20/309.

٣١٩ - مجموع الفتاوى 20/310.

في الأمصار وإنما جمعت علم أهل بلدي أو كما قال». وختم: «وإذا تبين أن إجماع أهل المدينة تفاوت فيه مذاهب جمهور الأئمة علم بذلك أن قولهم: أصح أقوال أهل الأمصار رواية ورأيا وأنه تارة يكون حجة قاطعة وتارة حجة قوية وتارة مرجحا للدليل».³²⁰

هاتان قراءتان لاحقتان؛ كلام عياض وابن تيمية ليس كلاماً ننسبه إلى مالك. لكن التفصيل الذي ذكره يعين على فهم أن عبارة «عمل أهل المدينة» لا تدل في جميع المواضع على نوع واحد.

قراءة من بعيد: ولي الله الدهلوي

وفي القرن الثاني عشر كتب ولي الله الدهلوي، من علماء الهند، كتابه «الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف»، وفيه قراءة تاريخية لنشأة المذاهب: أن أهل كل بلد أخذوا عن علماء بلدهم، فصار «مذهب عمر وعثمان وعائشة وابن عمر وابن عباس وزيد بن ثابت وأصحابهم» أحق بالأخذ عند أهل المدينة، و«مذهب عبد الله بن مسعود وأصحابه وقضايا علي وشريح والشعبي وفتاوى إبراهيم أحق بالأخذ عند أهل الكوفة»، ثم قال:

٣٢٠ - مجموع الفتاوى 20/311. وفي نسبة الخبر إلى «الرشيد أو غيره» انظر ما تقدم

في الفصل الثامن من أن أقدم طرقه تجعله للنصور.

فان اتفق أهل البلد على شيء أخذوا عليه بالنواجذ وهو الذي يقول في مثله مالك السنة التي لا اختلاف فيها عندنا كذا وكذا وإن اختلفوا أخذوا بأقواها وأرحها إما لكثرة القائلين به أو لموافقة لقياس قوي أو تخرج من الكتاب والسنة وهو الذي يقول في مثله مالك هذا أحسن ما سمعت فاذا لم يجدوا فيما حفظوا منهم جواب المسألة خرجوا من كلامهم وتبعوا الأيماء والاقضاء وألهموا في هذه الطبقة التدوين فدون مالك ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب بالمدينة وابن جريج وابن عيينة بمكة والثوري بالكوفة والريعي بن صبيح بالبصرة وكلهم مشوا على هذا النهج الذي ذكرته.³²¹ X

ثم ساق خبر المنصور ومالك في حمل الناس على كتابه، وقال: «وتحكي نسبة هذه القصة إلى هارون الرشيد وأنه شاور مالكا في أن يعلق الموطأ في الكعبة ... حكاها السيوطي».

يقراً الدهلوي هذه العبارات في سياق تلقي أهل كل بلد للعلم. فهو ينظر إلى ما حكاها مالك من اتفاق أهل بلده، وما رجه عند اختلافهم؛ وهذه قراءة لاحقة لطريقته في التعبير عن الفقه،

٣٢١ - ولي الله الدهلوي، الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة (دار النفائس، بيروت 1404هـ) ص 37-38؛ وفي ص 37: «ولذلك ترى مالكا يلزم محبتهم وقد اشتهر عن مالك أنه متمسك بإجماع أهل المدينة وعقد البخاري بابا في الأخذ بما اتفق عليه الحرمان». والمطبوع بلا علامات ترقيم في أكثره.

تحفظ بصفته تفسيراً من صاحبها، إلى جانب القراءات التي سبقتها.

ما يبقى من مالك اليوم

بقي الموطأ بين أيدي القراء، وبقيت مدرسة علمية حملت مسائل مالك وناقشتها عبر الأجيال. ومن وراء الكتب يعود بنا النظر إلى حياته: طول الأخذ عن الشيوخ، والعناية بما يرويه، والكلام حين يعلم والتوقف حين لا يعلم. وفي رسائله ومجالسه وخلافه مع أصحابه مجال لمعرفة رجل أوسع من كلمة واحدة اشتهر بها.

بقي الموطأ يقرأ، وبقيت مسائل مالك تدرس، وبقيت أخباره تردنا إلى الرجل الذي كان قبل ذلك كله طالباً عند شيوخه. وقد صحبناه في مجالسه وخلافه ومحتته، ورأينا بعض من حملوا علمه بعده. فإذا أغلقت هذه الصفحات بقي لك من الصحبة سؤال يخص يومك: ما الذي فهمته من طريقه، وأين تجد له موضعاً في عملك؟

باب: الأقوال والوصايا المأثورة

حفظ أصحاب مالك كلمات كثيرة في العلم والأدب والتثبت في الفتيا وتوقير الحديث والقناعة وحفظ اللسان. يجمع هذا الباب مادة موسعة من تلك الروايات، ويصل القول بمناسبته عند الحاجة، ويضم من رسائله وأجوبته ما يكشف عن طريقته في النظر والعمل.

المأثور هنا ما نسبته المصادر إلى صاحب السيرة، ولا تعني الإحالة إلى كتاب تصحيح جميع أسانيده. ذكر ما ظهر من اختلاف النسبة أو تنبيه الناقل، وجمعت الصيغ المتقاربة من الخبر الواحد قدر الإمكان. هذا استقصاء موسع في المصادر الميينة، لا دعوى الإحاطة بكل ما روي في جميع الكتب والمخطوطات. ولم تدخل الأحاديث النبوية التي رواها صاحب السيرة في عداد كلامه، ولا ثناء الآخرين عليه.

العلم الذي يصلح صاحبه

١ - «التواضع ترك الرياء والسمعة».³²²

٣٢٢ - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ترجمة مالك، باب «في حكمه ووصاياه وآدابه».

٢ - «التواضع في التقى والدين وليس في اللباس»³²³

٣ - نقله ابن وهب عنه.

«طلب العلم حسن لمن رزق خيره، وهو قسم من الله، ولكن
انظر ما يلزمك حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه»³²⁴

٤ - «العلم نور لا يأنس إلا بقلب تقي خاشع»³²⁵

٥ - «لولا النسيان لكان أكثر الناس علماء»³²⁶

٦ - «إنما أهلك الناس تأويل ما لا يعلمون»³²⁷

٧ - «يقع في قلبي أن الحكمة الفقه في دين الله، وأمر يدخله
الله القلوب من رحمته وفضله»³²⁸

٨ - في سماع ابن وهب وابن القاسم؛ وهو تفسير آخر للحكمة في
المصدر.

«الحكمة طاعة الله والإتباع لها، والفقه في الدين والعمل
به»³²⁹

٩ - «تعلموا الحلم قبل العلم»³³⁰

٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠ - القاضي عياض، ترتيب
المدارك، ترجمة مالك، باب «في حكمه ووصاياه وآدابه».

١٠ - وصية لبعض بني أخيه.

«إذا تعلمتم علما من طاعة الله فلير عليك أثره، ولير فيك سمته، وتعلم لذلك العلم الذي علمته السكينة والحلم والوقار.»³³¹

١١ - «أدب الله القرآن، وأدب رسوله السنة، وأدب الصالحين الفقه.»³³²

١٢ - من وصيته لبعض أصحابه؛ والشخص: الخروج والانتقال.

«لا تكثر الشخص من بيتك إلا لأمر لا بد منه، ولا تجلس في مجلس لا تستفيد منه علما.»³³³

١٣ - رواه عنه ابن المبارك.

«لا يصلح الرجل حتى يترك ما لا يعنيه، فإذا كان كذلك أوشك أن يفتح الله في قلبه.»³³⁴

١٤ - قالها لخالد بن خراش حين طلب وصيته.

«عليك بتقوى الله وطلب العلم عند أهله.»³³⁵

٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥ - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ترجمة مالك،

باب «في حكمه ووصاياه وآدابه».

١٥ - من وصيته لابن وهب؛ والاختصار على علمه هنا في مقابل القول بغير علم.

«اتق الله واقتصر على علمك فإنه لم يقتصر أحد على علمه إلا نفع وانتفع، فإن كنت تريد لما طلبت ما عند الله فقد أصبت ما تنتفع به، إن كنت تريد بما تعلمت الدنيا فليس في يدك شيء»³³⁶

١٦ - كلمة في مشقة الطلب واحتماله، لا أمر بإضاعة النفقة الواجبة.

«لن ينال هذا الأمر حتى يذاق فيه طعم الفقر»³³⁷

١٧ - «من عيب القاضي إذا عزل لم يرجع لمجلسه الذي كان يتعلم»³³⁸

٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨ — القاضي عياض، ترتيب المدارك، ترجمة مالك، باب «في حكمه ووصاياه وآدابه».

صيانة الرواية وأمانة التعليم

١٨ - في التحذير من تتبع الغرائب؛ فلا يُجعل اللفظ حكماً آلياً على كل حديث فرد.

«شر العلم الغريب وخير العلم الظاهر الذي قد رواه
الناس»³³⁹

١٩ - قالها لأبي مسهر.

«لا تسأل عما لا تريد فتنسى ما تريد، فإنه من اشترى ما لا
يحتاج إليه باع ما يحتاج إليه»³⁴⁰

٢٠ - الإزالة: الابتذال.

«من إزالة العلم أن تجيب كل من سأل، ولا يكون إماماً
من حدث بكل ما سمع، ومن إزالة العلم أن ينطق به قبل أن
يسأل عنه»³⁴¹

٢١ - «إن المسألة إذا سئل فيها الرجل ولم يجب واندفعت عنه
فإنما هي بلية صرفها الله عنه»³⁴²

٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢ - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ترجمة مالك، باب

«في حكمه ووصاياه وآدابه».

٢٢ - وردت في وصيته لأهل بيته؛ المراد تقديم الفهم على مجرد الإكثار.

«إن أحببنا أن ينفعنا الله بهذا الأمر فأقلنا منه ونفهما فيه»³⁴³

٢٣ - كان يقولها عند توديع بعض طلبة العلم.

«اتقوا الله في هذا العلم ولا تنزلوا به دار مضیعة، وبثوه ولا تكتموا»³⁴⁴

٢٤ - في ذم تكلف العضلات؛ أثبت اللفظ كما جاء في النقل.
«الكلام في هذه المسائل المعضلة تزيل الفتيا وتفسدها»³⁴⁵

٢٥ - «كثرة الكلام تمج العلم وتذله وتنقصه»³⁴⁶

٢٦ - رواية أشهب عنه.

«لا خير في رفع الصوت في المسجد لا في العلم ولا في غيره،
أدرکت الناس قديما يعيرون ذلك»³⁴⁷

٢٧ - نقله ابن وهب عنه.

«إذا كثر الكلام كان فيه الخطأ، وإذا أصيب الجواب قل
الخطاب»³⁴⁸

٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨ - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ترجمة

مالك، باب «في حكمه ووصاياه وآدابه».

- ٢٨ - من رسالته إلى أبي قرة؛ يتعلق بالنوع الموصوف في الرسالة.
«إني أرى الصواب في ترك تعلم المسائل التي قد ينتفع ببعضها إذا كان فيه من المضرة ما يخاف على صاحبها الخطأ والفتنة، فكيف بغيرها من المسائل التي لا منفعة فيها.»³⁴⁹
- ٢٩ - في اجتماع الأمانة والضبط فيمن يؤخذ عنه العلم.
«لا يؤخذ العلم عن أربعة: سفيه يعلن السفه، وإن كان أروى الناس، وصاحب بدعة يدعو إلى هواه، ومن يكذب في حديث الناس، وإن كنت لا أتهمه في الحديث، وصالح عابد فاضل إذا كان لا يحفظ ما يحدث به.»³⁵⁰

٣٤٩ - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ترجمة مالك، باب «في حكمه ووصاياه وآدابه».

٣٥٠ - الذهبي، السير، ج ٨، ترجمة مالك بن أنس، رواية إبراهيم بن المنذر عن معن وغيره.

القلب واللسان ومحاسبة النفس

٣٠ - في كسر زهو النفس بالشهرة.

«ينبغي للرجل إذا خول علما وصار رأسا يشار إليه بالأصابع أن يضع التراب على رأسه ويمتنع نفسه إذا خلا بها ولا يفرح بالرياسة، فإذا اضطجع في قبره ووسد التراب رأسه ساء ذلك كله.»³⁵¹

٣١ - «لا يستكمل الرجل الإيمان حتى يحرز لسانه.»³⁵²

٣٢ - «ما أسر عبد سريرة خير إلا ألبسه الله رداءها، ولا أسر سريرة سوء إلا ألبسه الله رداءها.»³⁵³

٣٣ - رواه ابن نافع عنه؛ في ذم فضول الكلام.

«كل شيء ينفع فضله إلا الكلام.»³⁵⁴

٣٤ - ينتهي كلام مالك هنا؛ وما بعده في المصدر تعليق لأبي قرة.

«من علم أن قوله من عمله قل كلامه، والقول من العمل.»³⁵⁵

٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥ - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ترجمة مالك،

باب «في حكمه ووصاياه وآدابه».

٣٥ - رواية القعني عنه.

«إذا مدح الرجل نفسه ذهب بهاؤه»³⁵⁶

٣٦ - نقله ابن وهب عنه.

«كفى بك ظالماً ألا تزال مخاصماً»³⁵⁷

٣٧ - «التقرب من أهل الباطل هلكة، القول الباطل يصد
عن الحق»³⁵⁸

٣٨ - «من سعادة المرء أن يوفق للخير، ومن شقاوة المرء أن
لا يزال يخطئ»³⁵⁹

٣٩ - «إنما قبحت الأشياء حتى يتعدى بها منازلها»³⁶⁰

الزهد والمروءة والصحبة

٤٠ - «الزهد في الدنيا طيب المكسب وقصر الأمل»³⁶¹

٤١ - رواه الفروي عنه.

«لا خير في شيء من الدنيا وإن كثر بفساد دين الرجل أو
مرءته»³⁶²

٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢ - القاضي عياض، ترتيب

المدارك، ترجمة مالك، باب «في حكمه ووصاياه وآدابه».

٤٢ - «أخسر الناس من باع آخرته بدنياه، وأخسر منه من باع آخرته بدنياه غيره»³⁶³

٤٣ - في القناعة؛ رواية ابن أبي أويس عنه.

«بغيتك منها ما يكفيك، فأقل عيشها يغنيك، وما قل وكفى خير مما أكثر وألهى»³⁶⁴

٤٤ - نقله ابن وهب عنه.

«ما زهد أحد في الدنيا إلا أنطقه الله بالحكمة»³⁶⁵

٤٥ - رواه خالد بن حميد عنه.

«عليك بمجالسة من يزيد في علمك قوله، ويدعوك لحال الآخرة فعله، وإياك ومجالسة من يعللك قوله ويعيبك دينه ويدعوك إلى الدنيا فعله»³⁶⁶

٤٦ - في القناعة؛ ما بعد هذه الجملة في المصدر تفسير لها.

«من رضي بشيء كفاه»³⁶⁷

٤٧ - الخرق هنا سوء التصرف وقلة الرفق، والعدم الفقر.

«خرق المرء أشد من العدم، والخرق لا ينني له شيئاً»³⁶⁸

٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨ - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ترجمة

مالك، باب «في حكمه ووصاياه وآدابه».

٤٨ - جواب من سأله الوصية، برواية ابن وهب.

«أوصيك أن تعمل صالحاً وتأكل طيباً»³⁶⁹

٤٩ - رواه ابن وهب عنه؛ المعونة ما يقدمه للناس، والمؤونة ما يكلفهم إياه.

«إن المؤمن حسن المعونة يسير المؤونة، والفاجر بضده»³⁷⁰

٥٠ - جوابه لشاعر هددته بالهجاء بعد فتوى لم توافق رغبته.

«يا هذا أتدري ما وصفت به نفسك؟ وصفتها بالسفه والدناءة وهما اللذان لا يعجز عنهما أحد، فإن استطعت فأت غيرهما مما تنقطع دونه الرقاب من الكرم والمروءة»³⁷¹

٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١ - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ترجمة مالك، باب «في حكمه ووصاياه وآدابه».

الوصايا والدعاء

٥١ - من وصية رواها مطرف عنه؛ الفواق مدة قصيرة.

«إذا هممت بأمر من طاعة الله فلا تجبسه إن استطعت فواقا حتى تمضيه، فإنك لا تأمن الأحداث، فإذا هممت بغير ذلك فإن استطعت أن لا تمضيه فواقا فافعل، لعل الله يحدث له تركه.»³⁷²

٥٢ - مقتطف من تمة الوصية نفسها.

«وأكثر تلاوة القرآن واجتهد أن تأتي عليك ساعة من ليل أو نهار إلا ولسانك رطب في ذكر الله.»³⁷³

٥٣ - ذكر مصعب أنه كان يقول هذا إذا بلغه موت أحد.

«الحمد لله رب العالمين الذي أبقانا بعده، اللهم لا تجعله لنا فتنة.»³⁷⁴

٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤ — القاضي عياض، ترتيب المدارك، ترجمة مالك، باب «في حكمه ووصاياه وآدابه».

٥٤ - رواية ابن وهب عنه.

«من أراد الله به خيرا أجمع عليه شمله، ومن نعم الله تعالى على العبد أن يجمع عليه أمره، ومن بلواه عليه أن يشتت عليه أمره.»³⁷⁵

التثبت في الفتيا والرجوع إلى الدليل

٥٥ - رواه ابن القاسم عنه.

«إني لأفكر في مسألة منذ بضع عشرة سنة فما اتفق لي فيها رأي إلى الآن.»³⁷⁶

٥٦ - رواه ابن مهدي عنه.

«ربما وردت علي المسألة فأسهر فيها عامة ليلي.»³⁷⁷

٥٧ - في تعليل تريثه في الإجابة.

«إني أخاف أن يكون لي من السائل يوم وأي يوم.»³⁷⁸

٣٧٥ - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ترجمة مالك، باب «في حكمه ووصاياه وآدابه».

٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨ - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ترجمة مالك، باب توقيه في الفتيا.

٥٨ - لرجل جاء بمسألة من مسيرة ستة أشهر؛ فلما سأله: ومن يعلمها؟ قال: «من علمه الله».

«أخبر الذي أرسلك أنه لا علم لي بها.»³⁷⁹

٥٩ - قلها لسائل ذكر أن أهل بلده يعدونه أعلم الناس.

«إذا رجعت فأخبرهم أنني لا أحسن.»³⁸⁰

٦٠ - لمن ألح عليه أن يجيب.

«ويحك، أتريد أن تجعلني حجة بينك وبين الله؟ فأحتاج أنا أولاً أن أنظر كيف خلاصي، ثم أخلصك.»³⁸¹

٦١ - رواية معن بن عيسى؛ المعيار هنا موافقة الدليل.

«إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكلمنا وافق الكتاب والسنة نفدوا به، وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه.»³⁸²

٦٢ - مقتطف من جوابه لمن استبعد أن يقول: لا أدري.

«وإنما أهلك الناس العجب وطلب الرئاسة، وهذا يضمحل عن قليل.»³⁸³

٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣ - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ترجمة مالك،

باب توقيه في الفتيا.

٦٣ - لمن وصف مسأله بأنها خفيفة سهلة؛ ثم استدل بقوله تعالى:
﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ [المزمل: ٥].
«ليس في العلم شيء خفيف»³⁸⁴

٦٤ - جواب في تقديم ألفاظ الحديث وتأخيرها مع اتحاد المعنى.
«أما ما كان من لفظ النبي صلى الله عليه وسلم فلا ينبغي أن
يقوله إلا كما جاء، وأما لفظ غيره فإذا كان المعنى واحداً فلا
بأس به.»³⁸⁵

٦٥ - قالها لأشهب حين رآه يكتب جوابه في مسألة.
«لا تكتبها، فإني لا أدري أثبت عليها أم لا.»³⁸⁶

٦٦ - حين كثر عليه السؤال.
«حسبكم، من أكثر أخطأ.»³⁸⁷

٦٧ - في رد السؤال المتكلف في الواقعة المذكورة بالمصدر.
«سل عما يكون ودع ما لا يكون.»³⁸⁸

٦٨ - قالها لسائل عن أمر لم ير في سؤاله فائدة.
«لو سألت عما تنفع به أجبتك.»³⁸⁹

٦٩ - جوابه عن طلب توسيع مجلسه في أخبار الأنساب والفضائل.
«إنما نتكلم فيما نرجو بركته.»³⁹⁰

٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠ - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ترجمة

مالك، باب توقيه في الفتيا.

توقير الحديث وتعليم الناس

٧٠ - في خبر طلب هارون الرشيد أن يقرأ عليه في موضعه؛ يرويه مطرف.

«العلم يؤتى ولا يأتي»³⁹¹

٧١ - قلها لابن مهدي؛ ثم دعاه حين جلس وأذن له أن يسأل.
«أتسألني عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نمشي؟»³⁹²

٧٢ - «لا ينبغي لأحد عنده علم أن يترك التعليم»³⁹³

٧٣ - في رواية خالد بن نزار، حين استوى مالك جالسا قبل التحديث.

«إن العلم أجل من ذلك، ما حدثت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا متكئ»³⁹⁴

٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤ - القاضي عياض، ترتيب المدارك، باب صفة مجلس

مالك للعلم ونشره له وصيانيته إياه وتوقيره لحديث النبي صلى الله عليه وسلم.

عبارات من حياته ورسائله

٧٤ - رواه ابن مهدي عنه؛ الكاسية موضع الكنس.

«لو علمت أن قلبي يصلح على ككاسة لذهبت حتى أجلس عليها»³⁹⁵

٧٥ - في خبر اعتذاره عن بعض ما تركه من مخالطة الناس، قبل أن يذكر علته في آخر حياته.

«ما يتيأ لكل أحد أن يذكر ما فيه»³⁹⁶

٧٦ - من جوابه للمنصور في حمل الناس على الموطأ؛ سبقه بيان اختلاف ما بلغ الأمصار من العلم.

«فدع الناس وما هم عليه وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم»³⁹⁷

٧٧ - من بيان اصطلاحه في الموطأ، برواية ابن أبي أويس.

«وما قلت الأمر عندنا فهو ما عمل الناس به عندنا وجرت به الأحكام وعرفه الجاهل والعالم»³⁹⁸

٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨ — القاضي عياض، ترتيب المدارك، ترجمة مالك، أبواب

تعبده، وحكمه، وذكر الموطأ وتأليفه.

٧٨ - قالها لمن عرضوا الموطأ في أربعين يوماً؛ الحكاية في المصدر، وليست وحدها تحقيقاً لتاريخ التصنيف.

«كتاب ألفته في أربعين سنة أخذتموه في أربعين يوماً، قل ما تتفقهون فيه.»³⁹⁹

٧٩ - قالها لمطرف في حديثهما عن الموطأ.
«إن مد بك العمر فسترى ما يراد به الله.»⁴⁰⁰

من حياته ورسائله

٨٠ - من جوابه لعبد الله العمري العابد حين حضه على الانفراد للعمل.

«إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد. فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر.»⁴⁰¹

٣٩٩، ٤٠٠ - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ترجمة مالك، أبواب تعبد، وحكمه، وذكر الموطأ وتأليفه.

٤٠١ - الذهبي، السير، ٨/١١٤؛ نقلاً عن ابن عبد البر في التمهيد.

نبه ابن عبد البر إلى أنه كتب هذا من حفظه وغاب عنه أصله؛ فالنص نقل بالمعنى بحسب تنبيهه، لا نسخة مقابلة من رسالة مالك.

كلمات في العلم والورع ومحاسبة النفس

٨١ - «إن العلم ليس بكثرة الرواية، إنما العلم نور يجعله الله في القلب»⁴⁰²

٨٢ - «إن حقا على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، وأن يكون متبعا لأثر من مضى قبله»⁴⁰³

٨٣ - «كان الرجل يختلف إلى الرجل ثلاثين سنة يتعلم منه»⁴⁰⁴

٨٤ - «لا يؤخذ العلم إلا عن من يعرف ما يقول»⁴⁰⁵

٤٠٢ - الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ٢/١٧٥، رقم ١٥٢٦؛ عن ابن وهب، عن مالك.

٤٠٣ - أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ٦/٣٢٤؛ من رواية ابن وهب عن مالك.

٤٠٤ - أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ٦/٣٢٠؛ من رواية القعني عن مالك.

٨٥ - سأله رجل أياماً، ثم أخبره أنه يريد السفر، فقال له مالك:
«إني إنما أتكلم فيما أحتسب فيه الخير، وليس أحسن مسألتك
هذه.»⁴⁰⁶

٨٦ - سأل مطرفاً عما يقوله الناس فيه، فأخبره بثناء الصديق ووقعة
العدو. فقال:

«ما زال الناس كذا لهم صديق وعدو، ولكن نعوذ بالله من
تتابع الألسنة كلها.»⁴⁰⁷

٤٠٥ - أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ٦/٣٢٢؛ في خبر علي بن عبد الله
عن انتقاء مالك للرجال. أبقى لفظ «عن من» كما في المصدر.

٤٠٦ - أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ٦/٣٢٣؛ من رواية عبد الرحمن
بن مهدي.

٤٠٧ - أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ٦/٣٢١؛ من رواية مطرف عن
مالك.

والآن... ماذا ستصنع بهذه الصحبة؟

اقتراحات من مؤلف الكتاب، مستلهمة من الوقائع السابقة؛
وليست برنامجاً منسوباً إلى الإمام.

قد يبقى معك من مالك صبره على التعلم، أو طريقته في السؤال،
أو عنايته بما ينقل، أو عمله الطويل في الموطأ. اختر معنى تحتاج
إليه الآن، وحوله إلى فعل تستطيع إتمامه.

ابدأ من حاجة تعرفها

تذكر موقفاً قريباً لم تحسن التصرف فيه: أجبت قبل أن تعلم، أو
نقلت عبارة بلا أصل، أو اختلفت مع صاحب فنسيت حقه. سم
الفعل الذي تريد تغييره، ومن يتأثر به؛ فهذه بداية أوضح من أن
تطالب نفسك بأن تشبه الإمام في حياته كلها.

جواب على قدر العلم

كان مالك يخشى أن يراجع فتواه بعد انصراف السائل، فلا يعرف
أين يجده. حين تسأل أنت، فرق بين ما تعرفه وما يحتاج إلى
بحث. إن وعدت بالرجوع إلى السائل، فحدد وقتاً تستطيع الوفاء
به، ثم عد إليه.

لا تجعل التوقف عادة تغنيك عن التعلم. ارجع إلى المصدر أو اسأل من يحسن الجواب، واذكر ما بقي مجهولاً. وإذا صححت قولاً سابقاً، فأوصل التصحيح إلى من بلغه الخطأ.

اعرض قدرتك على من يعرفها

سأل مالك ربيعة ويحيى بن سعيد عن أهليته للفتوى. إذا أردت أن تتولى تعليمًا أو عملاً تعتمد فيه حقوق الناس على معرفتك، فاعرض مثلاً من أدائك على صاحب خبرة، واسأله عما ينقصك. ليكن السؤال محددًا: هل أستطيع شرح هذا الباب؟ هل أحسن تنفيذ هذه المهمة؟ ثم اعمل بالملاحظة التي تصلك. وليس كل عمل محتاجاً إلى إذن؛ المقصود أن تعرف حدود قدرتك قبل أن يتحمل غيرك نتيجة تجاوزها.

أهل الكلمة قبل نقلها

اقرأ الكلام في سياقه قبل مشاركته، وتحقق من اسم قائله. خبر أعجبك لا يصير صحيحاً لأن معناه جميل، ورواية عن عالم تحبه لا تثبت لأنها تليق به.

وإذا لم تصل إلى الأصل، فقل إنك لم تتحقق، أو أمسك عن النشر. لا يكفي أن تضيف «ينسب إليه» ثم تدع القارئ يفهم

أنك اطمأنت إلى النسبة. وإن نسبت إليك كلمة مزينة لم تقلها،
فصححها ولو كانت في مدحك.

احفظ صاحبك وأنت تناقشه

في رسالتيه مع الليث كلام صريح في الخلاف، ومعه سؤال عن
الحال ودعاء بالخير. بقيت للصاحب منزلته، وبقي لكل واحد
منهما نظره فيما اختلفا فيه.

جرب في خلاف قائم أن تكتب ما تتفقان عليه، ثم تحدد موضع
الاعتراض وحجة كل منكما كما يفهمها صاحبها. اسمع الجواب، ولا
تجعل موافقته لك شرطاً لكل صلة بينكما. وقد يحتاج بعض
الخلاف إلى حدود أو وسيط؛ فاختر ما يلائم واقع العلاقة.

أعط الفهم وقته

نبه مالك من قرؤوا كتابه في أربعين يوماً إلى ما وراء القراءة من
فقه. اختر شيئاً تعلمته مؤخراً، ثم اشرحه بكلامك أو طبقه على
مثال جديد. الموضع الذي تعجز عنده يبين ما تحتاج إلى تعلمه بعد.
اطلب تصحيحاً من شخص يعرف الموضوع، وأعد المحاولة. سرعة
إنهاء المادة لا تقيس وحدها ما فهمته، كما أن طول الجلوس لا
يضمن الفهم.

تحقق قبل الموقف

إذا كلفك قول الحق شيئاً، فابدأ بمعرفة الوقائع والدليل، وراجع فهمك مع من تثق بعلومه. قد يكون الثبات مطلوباً، وقد يكون الواجب تصحيح خطأ وقعت فيه أنت.

واختر طريقاً مشروعاً يحفظ حَقَّك وحقوق من معك. لا يلزم المظلوم الصمت عن أذاه، وله أن يطلب رفعه. ولا نبني هذا الباب على خبر عفو مالك أو كتمانك للمحنة؛ فقد تقدم ما يحتاج إلى التثبت فيهما.

افهم ما تقبله

قبل قبول منفعة أو مسؤولية، افهم شروطها وما يترتب عليها. اسأل عما قد يؤثر في صدقك أو يعارض حقوق الآخرين، واطلب بياناً واضحاً. لا تتهم كل مهدي أو صاحب عرض؛ لكن لا تدع الحرج من السؤال يصنع التزاماً لم تفهمه.

علم من يحمل العمل معك

انتشر علم مالك بما حمله تلاميذه وما أضافوه من جمع وشرح ونظر. في عملك أيضاً معرفة يحتاج إليها غيرك: اشرحها، واكتب ما يلزم، واسمح لمن يتعلم أن يسأل ويقترح.

اختر مهمة صغيرة ودع زميلاً يجرب أداءها من شرحك. أصلح
المواضع التي لم تتضح له، واحفظ حقه فيما يحسنه أو يضيفه.
نجاح التعليم يظهر حين يصبح أقدر على العمل، لا حين يحتاج
إليك في كل خطوة.

اختر مما تقول

أحب ابن عبد البر مالكا وجمع أخباره، ثم أثر الانتقاء على الحشو.
راجع أنت رسالة أو درسا أعدته: ما الذي يحتاج إليه القارئ؟
وما الذي كررته؟ احذف الزائد، وأبق من الشرح ما يتم به الفهم.

راجع فعلاً واحداً

لا تبدأ بهذه المسارات كلها. اختر واحداً، وحدد أول فعل
وموعداً لمراجعته. ثم أسأل: ماذا نفذت؟ وما الذي تغير عند من
قصدت نفعه؟ وما الذي يحتاج إلى تعديل؟

إن تعثرت فصغر الخطوة أو غير الوسيلة. وإن نجحت فلا تنسب
إلى نفسك من الأثر أكثر مما تعرفه. تستقيم المراجعة حين تصف
ما حدث، وتستعين بملاحظة من يشاركك العمل.

عندما تغلق الكتاب ستعود إلى أناس يعرفونك باسمك أنت، لا
باسم مالك. واحد منهم قد ينتظر منك جواباً أدق، أو خبراً
تحققت منه، أو كلمة تعيد بها السلام، أو سؤالاً تسأله قبل أن

تجلس. اختر ما تستطيع الوفاء به. هناك، في الجواب الذي ستقوله
بعد القراءة — أو الجواب الذي ستمتنع عنه حتى تعلم — تأخذ
هذه الصحبة مكانها من حياتك.

ملاحق

خط زمني ودليل الأماكن

كيف تقرأ هذا الخط؟

يجمع هذا الخط تواريخ وردت في فصول الكتاب. بعض التواريخ صريح في رواية، وبعضها مشهور مع خلاف، وبعضها مستنتج من حساب العمر. يرجع في تفصيل الطريق إلى الفصل المذكور وحواشيه.

وصف الخبر هنا بأنه «مسند» يعني أن المصدر ساق له إسناداً، ولا يعني الحكم بصحته. قد يكون في الإسناد ضعف أو راو لم يسم، وقد بينت القيود المؤثرة في مواضعها.

وتنبية لازم: الخلاف في المولد (بين تسعين وسبع وتسعين) يجرّ خلافاً في كل عمر ذكر لمالك بعد ذلك؛ فمن قرأ «ابن ثمان وعشرين» أو «نحو أربع وعشرين» فليعلم أن الرقم مبني على قول في المولد لا على يقين.

الخط الزمني

74هـ — وفاة الجد مالك بن أبي عامر، على ما رواه ابن أبي أويس عن أبيه عن الربيع بن مالك. موضعه: الفصل الثاني.

80هـ — مولد أبي حنيفة بالكوفة. الموضع والقناة: الفصل الثاني عشر؛ ابن عبد البر عن أبي نعيم الفضل بن دكين. الدرجة: مسند. 93هـ — مولد مالك على أشهر الأقوال؛ وقيل 94، وما بين 90 و97. الموضع والقناة: الفصل الثاني؛ الذهبي عن يحيى بن بكير، وعياض في حصر الأقوال؛ وقول ابن عبد الحكم بسنة 94. الدرجة: مشهور، مع خلاف.

90 و95هـ — قولان يستأنس لهما بحساب السن: خبر محمد بن فليح أن مالكا أكبر من أبيه، المولود سنة 93، بثلاث سنين؛ وتقدير سنه بثمان وعشرين سنة في سنة 123. موضعهما: الفصل الثاني. الحساب تابع لصحة الخبر ودقة تقدير السن.

نحو 117هـ — وفاة نافع مولى ابن عمر على المشهور؛ وكانت لمالك حلقة في حياته. الموضع والقناة: الفصل الخامس؛ قول أيوب وشعبة؛ وسنة الوفاة من المشهور في التراجم لا من مصدر قبول. الدرجة: مشهور.

123هـ — مالك يأتي ابن شهاب الزهري وهو «ابن ثمان وعشرين» في حساب ابن المديني. الموضع والقناة: الفصل الثاني؛ ابن أبي حاتم. الدرجة: حساب.

131 أو 135 هـ — مولد محمد بن الحسن الشيباني بواسطة. الموضع والقناة: الفصل الثاني عشر؛ الانتقاء. الدرجة: مشهور، مع خلاف.

144 هـ — حج المنصور وإرساله محمد بن عمران الطلحي ومالكاً إلى بني حسن. الموضع والقناة: الفصل الرابع عشر؛ الطبري عن عمر بن شبة بإسناده. الدرجة: مسند.

145 هـ — خروج محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة ومقتله. ونقل لزوم مالك بيته عن الواقدي، وفي طريق آخر عن رواية لم يسموا. يبقى ضعف الطريقين ظاهراً، ولا يثبت بمجرد ذكر الإسناد. موضعه: الفصل الرابع عشر.

ربيع الأول 146 هـ — قدوم جعفر بن سليمان المدينة والياً. الموضع والقناة: الفصل الرابع عشر؛ الطبري. الدرجة: مسند في التاريخ.

146 أو 147 هـ — ضرب مالك بالسياط. الموضع والقناة: الفصل الرابع عشر؛ مصعب الزيري عند عياض والذهبي «ست وأربعين وقيل سبع وأربعين»؛ وابن الجوزي: 147. الدرجة: مشهور، مع خلاف؛ ولم يرجح.

150هـ — قدوم المنصور المدينة ودخول مالك عليه («يا مالك
كثر شيبك»). الموضع والقناة: الفصل الثالث عشر؛ ابن أبي حاتم
عن موسى بن داود عن مالك. الدرجة: مسند.

150هـ — عزل جعفر بن سليمان عن المدينة. الموضع والقناة:
الفصل الرابع عشر؛ الطبري. الدرجة: مسند في التاريخ.

150هـ — وفاة أبي حنيفة؛ وفي السنة نفسها مولد الشافعي.
الموضع والقناة: الفصل الثاني عشر؛ الانتقاء عن أبي نعيم. الدرجة:
مسند.

بلا سنة — كتاب مالك إلى الليث بن سعد، مؤرخ في نصه «يوم
الأحد لسبع مضين من صفر» (وعند عياض: «لتسع»). الموضع
والقناة: الفصل العاشر؛ الفسوي عن يحيى بن بكير. الدرجة:
مسند؛ والسنة غير مذكورة.

«في عشرة السبعين ومئة» — إلزام أمير الأندلس الناس بمذهب
مالك «في حياة مالك» — بلفظ عياض؛ واسم الأمير مختلف فيه
بين عياض والمقري. الموضع والقناة: الفصل السابع عشر. الدرجة:
بلا إسناد؛ نقل بلفظه ولم يجعل تاريخاً مثبتاً.

178هـ — محمد بن إبراهيم عامل مكة والمدينة واليمن، وقد وجه
على المدينة ابنه. الموضع والقناة: الفصل السادس عشر؛ الفسوي

في حوادث السنة، وتاريخ خليفة. الدرجة: مسند في التاريخ؛ سياق
لاسم الوالي الذي صلى على مالك.

179هـ — وفاة مالك؛ وهو التاريخ الذي رحمه العلماء، وقال
الذهبي بتواتر الأخبار به. اختلف في الشهر واليوم بين ربيع الأول
وصفر، وفي أيام ربيع الأول نفسها. موضعه: الفصل السادس
عشر.

189هـ — وفاة محمد بن الحسن الشيباني بالري، كما في الانتقاء
ص 175. وهو تاريخ من كتاب التراجم، لا من تصريح شاهد في
الموضع المذكور.

197هـ — وفاة عبد الله بن وهب بمصر. الموضع والقناة: الفصل
الحادي عشر؛ الانتقاء بإسناد السراج عن خالد بن خدّاش.
الدرجة: مسند.

234هـ — ولاية سخون قضاء إفريقية، «وسنه إذ ذاك أربع
وسبعون سنة». الموضع والقناة: الفصل السابع عشر؛ ترتيب
المدارك. الدرجة: من كتاب طبقات؛ بلا إسناد مذكور.

281-289هـ — خروج محمد بن سليمان القطان إلى صقلية قاضياً
سنة 281 ووفاته بها سنة 289. الموضع والقناة: الفصل السابع
عشر؛ ترتيب المدارك. الدرجة: من كتاب طبقات؛ بلا إسناد
مذكور.

282هـ — وفاة إسماعيل بن إسحاق القاضي ببغداد. الموضع
والقناة: الفصل السابع عشر؛ ترتيب المدارك. الدرجة: من كتاب
طبقات؛ بلا إسناد مذكور.

لم يثبت هذا الجدول سنة محددة لكل لقاء أو لبداية تأليف الموطأ.
عدم ذكر التاريخ لا يعني عدم وقوع الحدث، بل أن مادته
المعتمدة هنا لا تكفي لتعيين السنة.

دليل الأماكن

يربط هذا الدليل أسماء الأماكن بأخبارها في الكتاب. كانت
المدينة موطن مالك ومجلسه، وامتدت صلاته بطلاب وعلماء في
بلاد أخرى. لا تجعل هذه الأسماء كلها محطات في رحلة له.
المدينة: فيها نشأ مالك وأخذ عن شيوخه، وفيها مجلسه ومحنته ووفاته
ودفنه بالبقيع. ومن تفاصيل أخبارها موضع مجلس ابن هرمز
ومنزل نافع ومجلس مالك في داره.
مكة والكعبة: ترد مكة في أخبار الحج، والكعبة في روايات طلب
حمل الناس على الموطأ. وقد تقدم اختلاف تلك الروايات في
الفصل الثامن.

العراق: الكوفة موطن أبي حنيفة، وواسط مولد محمد بن الحسن،
والبصرة من مواطن رواة الموطأ. وترد بغداد باسم «مدينة السلام»

في خبر طلب الخليفة خروج مالك من المدينة، ثم في انتشار المذهب على يد إسماعيل القاضي.

الري: وردت في تاريخ وفاة محمد بن الحسن الشيباني سنة 189هـ. مصر والفسطاط. إليها كتب مالك رسالته إلى الليث، ومنها جاء جواب الليث (الفصل العاشر). وفيها ابن وهب وابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم، ووصفها عياض بأنها «أول أرض انتشر بها مذهب مالك بعد المدينة» (الفصلان الحادي عشر والسابع عشر). والفسطاط هي مدينة مصر القديمة التي ينسب إليها أهل هذه الطبقة.

الشام. موطن الأوزاعي الذي كان أهل الأندلس «في القديم على مذهبه» قبل أن يغلب عليهم مذهب مالك (الفصل السابع عشر)؛ وفي رسالة الليث ذكر «مطر الشام» في مسألة الجمع بين الصلاتين ليلة المطر (الفصل العاشر).

القيروان وإفريقية. إليها حمل أسد بن الفرات مسائله، وفيها هذب سخون المدونة وولي القضاء سنة 234 (الفصلان الحادي عشر والسابع عشر). و«إفريقية» في لسان هذه الكتب هي الإقليم الذي القيروان قاعدته، لا القارة.

الأندلس وقرطبة: حمل إليها الرواة الموطأ، واتسعت فيها مكانة يحيى بن يحيى الليثي وصلته بالقضاء والفتوى. راجع الفصل الحادي عشر والفصل السابع عشر وملحق القراءات.

المغرب. يرد في كلام عياض عن غلبة مذهب مالك على «المغرب» في زمنه، وهو الإقليم الواسع غرب مصر (الفصل السابع عشر).

خراسان ونيسابور. خراسان إقليم واسع وصل إليه الموطأ يحيى بن يحيى التيمي النيسابوري وعبد الله بن المبارك وقتيبة؛ ونيسابور مدينة يحيى التيمي الذي قال فيه أحمد: «ما أخرجت خراسان بعد ابن المبارك مثل يحيى بن يحيى» (الفصلان الحادي عشر والسابع عشر).

صقلية. ولي قضاءها محمد بن سليمان القطان من أصحاب المذهب، نخرج إليها سنة 281 ومات بها سنة 289، «وعنه انتشر مذهب مالك بها» (الفصل السابع عشر).

اليمن والحجاز. يردان في خريطة عياض لانتشار المذهب (الفصل السابع عشر)؛ والحجاز هو الإقليم الذي قال فيه الشافعي: «لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز» (الفصل الثاني عشر).

وأسماء الأقاليم القديمة لا تطابق بالضرورة حدود الدول اليوم؛ فمن أراد أن يضع هذه الأسماء على خريطة حديثة فليعلم أنه ينقل من لغةٍ جغرافية إلى أخرى.

معجم للقارئ

جمعنا هنا ألفاظًا تكررت في الكتاب، بعضها من اصطلاح أهل الحديث والفقهاء، وبعضها من اصطلاح هذا الكتاب نفسه. والتعريفات مختصرة على قدر الحاجة في قراءة هذا الكتاب، لا على قدر ما في كتب المصطلح.

الإسناد: سلسلة الناقلين التي يُنسب بها الخبر إلى قائله؛ «حدثنا فلان عن فلان». وقد لزمنا في هذا الكتاب أن نذكر في الحاشية طرفَ الإسناد أو من روى الخبر عن مالك، ليعرف القارئ من أين جاء الكلام.

مسند أو بإسناد: يستعمل هنا للدلالة على أن المصدر ذكر طريق الرواية. ولا يلزم من وجود الطريق اتصاله أو صحة رجاله؛ فقد يرد فيه انقطاع أو راو مبهم أو ضعيف.

بلا إسناد: الخبر الذي أورده مصدره من غير أن يذكر طريقه إلى قائله. وأكثر ما نبهنا عليه في هذا الكتاب من هذا النوع جاء في ترتيب المدارك والديباج وكتب المناقب. وقد قرأناه على أنه مما يُحكى، لا مما يُحتج به وحده.

المعلق: في استعمال هذا الكتاب: الخبر الذي ذكره مؤلف متأخر معزواً إلى قائله بصيغة مختصرة («وقال ابن وهب») من غير إسناد منه إليه، كما في كلمة «لولا مالك والليث لضللنا» عند الذهبي. المرسل والمنقطع: المرسل من صورته المشهورة أن يروي التابعي عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير تسمية الصحابي. والمنقطع ما سقط من إسناده راوٍ في موضع. وقد نبهنا في الفصل الحادي عشر على أن أخبار القيروان عند القاضي عياض جاءت «بأسانيد ناقصة».

البلاغ / «بلغني»: صيغة تفيد وصول الخبر إلى ناقله من غير أن يسوق طريقه. وفي الموطأ نفسه بلاغات كثيرة؛ وفي هذا الكتاب نبهنا حيث جاء الخبر بصيغة «بلغني» أو «روينا» عند ابن عبد البر. الأثر: ما ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أو الصحابة أو التابعين بحسب استعمال المصنف. ويعرف المراد في كل موضع من قائله وسياقه.

عمل أهل المدينة: اسم يدخل تحته عند العلماء نقل متوارث واجتهاد وعمل قديم أو متأخر، وتختلف أحكامهم في الاحتجاج بهذه الأنواع. لا تتطابق كل عبارات مالك في الموطأ مع معنى واحد لهذا الاسم؛ وقد بسط الخلاف في الفصول والملحق.

الموطأ: كتاب مالك الذي جمع فيه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول الصحابة والتابعين ورأيه هو، على أبواب الفقه. وفي تسميته مرّ في الفصل الثامن قول أبي حاتم: «شيء صنعه ووطأه للناس»، أي سهّله ومهّده؛ وأما الخبر الشائع «واطأني عليه سبعون فقيهاً» فلم نجده إلا بطريق متأخرة منقطعة. وتُطلق «الموطآت» على كتبٍ أخرى صنّفها معاصرو مالك على المعنى نفسه.

رواية الموطأ: ما حمّله راو عن مالك من الكتاب سماعاً أو عرضاً. بين رواياته فروق في الزيادة والنقص والترتيب وطرق الأحاديث، تدرس بمقارنة النسخ وأحوال ناقليها.

السماع والعرض: السماع أن يحدث الشيخُ الطالبُ يسمع؛ والعرض أن يقرأ الطالبُ أو قارئٌ على الشيخ والشيخ يسمع ويقرّ. وكان أهل المدينة يسوّون بينهما، وقال مالك: «هو علم بلدنا» (الفصل الثامن).

الفتوى / الفتيا: الجواب عن سؤال في الحلال والحرام. وجلوس مالك للفتوى بعد أن «شهد له سبعون» في الفصل الخامس، وقوله «لا أدري» في الفصل التاسع.

المحنة: في لسان كتب التراجم: ما يُصيب العالم من سلطان من ضرب أو حبس بسبب قول أو فتوى. ومحنة مالك ضربه بالسياط في ولاية جعفر بن سليمان، وقد أفردنا لها الفصل الرابع عشر.

طلاق المكره: الطلاق الذي يقع من صاحبه تحت إكراه معتبر. نقل الكتاب قول مالك بعدم وقوعه، وورود هذه المسألة في أخبار ضربه. أما شروط الإكراه وتفصيل الأحكام فلها بحثها الفقهي المستقل.

المناقب وكتب المناقب: الكتب التي جمعت للثناء على عالم وذكر فضائله، وتكثر فيها الأخبار بلا إسناد والمناجات. وكلمة ابن عبد البر «الاقتصار منها على عيونها أولى من الإثثار» في الفصل السادس عشر هي قاعدتنا في قراءتها.

التراجم والطبقات: الترجمة سيرة رجل مختصرة في كتاب يجمع سير كثيرين؛ والطبقات ترتيب الرجال على أزمانهم أو بلدانهم أو مذاهبهم. ومن مصادر هذا الكتاب الأولى طبقات ابن سعد وترتيب المدارك والديباج وسير أعلام النبلاء.

الجرح والتعديل: دراسة أحوال الرواة من حيث العدالة والضبط. والثقة من جمعهما على ما يبينه اصطلاح الناقد؛ أما الضعف فمراتب، ولا يستوي كل ضعيف مع المتهم أو المتروك.

الرأي والقياس: الرأي نظر الفقيه واجتهاده في فهم المسألة وأدلتها. والقياس إلحاق فرع بأصل في حكم لعلته تجمعهما. وترد عبارة «أصحاب الرأي» في الأخبار وصفاً لأهل مدرسة فقهية، ولا تعني انفرادهم باستعمال النظر.

خبر الآحاد: الخبر الذي لا يبلغ حد التواتر. وقد ذكر ابن عبد البر الخلاف في قبول بعض أخباره ضمن تفسيره للنزاع بين الفقهاء والمحدثين.

المدونة والأسدية: الأسدية مسائلُ سأل عنها أسدُ بن الفرات ابنَ القاسم عن مالك؛ ثم رتبها سخنون وهذَّبها فصارت «المدونة»، وهي أصلُ الفقه المالكي بعد الموطأ (الفصل الحادي عشر).

المذهب: ما يجمع أقوال الإمام وطريقة فهمها وتحريرها، وما نشأ حولها من عمل أصحابه وعلماء المدرسة. لا تنسب كل نتيجة متأخرة فيه إلى الإمام بلفظها.

الوالي / العامل / الخليفة: الخليفة رأس الدولة؛ والوالي أو العامل من يوليه مدينةً أو إقليمًا. ومرّ بنا جعفر بن سليمان والياً على المدينة، ومحمد بن إبراهيم عاملاً على مكة والمدينة واليمن.

الدينار والدرهم: الدينار نقدٌ من ذهب، والدرهم من فضة. وأرقام الدنانير في أخبار الخلفاء مع مالك مختلف فيها بين الروايات (خمسمائة، ألفان، ثلاثة آلاف)، كما بين في الفصل الثالث عشر.

ترقيم الحواشي ((1/683))، «ص440»، «رقم 2726»): الرقم قبل الخط الجزء وبعده الصفحة في الطبعة المذكورة في ملحق المصادر؛ و«ص» الصفحة في كتاب ذي جزء واحد؛ و«رقم» رقم الخبر أو الترجمة حيث كان الكتاب مرقماً. وحيث قلنا «في

المطبوع كذا» فالمراد أن لفظ الطبعة التي قابلنا عليها كذا، وأنا أثبتنا غيره لقريئة ذكرناها.

ما بين المعقوفين [] : زيادة من المحقق في الطبعة، أو منا، لإقامة لفظٍ ساقط، وقد نبهنا عليها في الحاشية حيث وقعت.

النقل والتفسير: توضع العبارات المنقولة بين علامتي تنصيص أو في فقرة نقل مميزة، وتذكر مصادرها في الحواشي. أما شرح الموقف وربطه بالسياق فمن صياغة مؤلف الكتاب. وقد دمج المعنى في السرد، وألغى فصل «الفائدة» المتكرر بعد الأخبار.

ملحق المصادر والتوثيق

نطاق هذه الصياغة

هذه سيرة للقارئ العام، غايتها التعرف إلى مالك من أقواله وأفعاله، وبناء الاقتداء على معرفة به. أعيد تحرير السرد ودمج الفوائد واختصار التكرار، مع الحفاظ على مصادر الأصل وقيود الروايات. ولم تضاف حوارات أو مشاهد أو دوافع باطنة لا يذكرها الخبر.

هذه النسخة تحرير جديد للمادة السابقة، وليست تحقيقاً مستقلاً جديداً لكل إسناد. تميز بين ورود الخبر في مصدر، ووجود إسناد له، والحكم بصحته؛ وهذه أمور لا يغني بعضها عن بعض.

أصول التوثيق الموروثة من النسخة السابقة

اعتمد أصل الكتاب نصوصاً إلكترونية لطبعات مطبوعة، وصرح بأن المقابلة على صور الصفحات كانت محدودة. احتفظت الصياغة الحالية بالإحالات وأسماء الطبعات كما أثبتت فيه، مع تصحيح ما تأثر بتغيير البنية. ما لم تطابق طبعته أو يحرر طريقه لا يكتسب هذا التحقق بمجرد إعادة صياغته.

قدمت المصادر المسندة والقريبة حيث وجدت، وذكرت الأسانيد الناقصة والأخبار غير المسندة بقيدھا. وقرب المصدر لا يكفي وحده للحكم بصحة الخبر؛ بل ينظر في ناقله واتصال طريقه. وعند تعدد الروايات ميز ما اتفقت عليه وما اختلفت فيه، من غير اقتراض استقلال الطرق لمجرد اختلاف الكتب. بقيت الزيادات بين المعقوفين وعلامات الاختصار وفق الأصل المنقول، ويبين مصدرها حيث نصت الحاشية عليها.

الطبعات والترقيم المذكوران في أصل الكتاب

تقرأ أرقام الأجزاء والصفحات بحسب بيانات الطبعات الآتية التي سجلها الأصل. وإذا لم تعين الطبعة فالإحالة تحتاج إلى مطابقة عند التحقيق النهائي.

الموطأ، رواية يحيى بن يحيى الليثي: بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار إحياء التراث العربي، 1406 هـ. قبل عليها موضعان: خبر ثابت بن الأحنف في طلاق المكره (2/587)، ومسألة بيع الخيار «وليس لهذا عندنا حد معروف» (2/671-672).

المدونة: طبعة دار الكتب العلمية، 1415 هـ (2/79 و 2/83).

الحجة على أهل المدينة لمحمد بن الحسن: طبعة عالم الكتب، بيروت 1403 هـ، بتحقيق مهدي حسن الكيلاني. ولم تُثبت مطابقة ترقيمها لطبعة حيدر آباد.

الأم للشافعي، ومنه كتاب اختلاف مالك والشافعي: طبعة دار المعرفة، بيروت 1410 هـ (7/201، 7/282).

الطبقات الكبرى لابن سعد: قُرئ المجلد السابع ومواقع من الثاني بترقيم طبعة الخانجي حيث نص عليه؛ وترجمة مالك في «القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم» بترقيم صفحاته (ص 438-444) مع حواشي محققه.

تاريخ الرسل والملوك للطبري: الترقيم على طبعة دار المعارف، وقد وافقها فيما قبل ترقيم طبعة دار التراث 1387 هـ.

تاريخ الإسلام للذهبي: طبعة بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي 2003 م (المجلد الرابع).

الطبقات لخليفة بن خياط: طبعة أكرم ضياء العمري (دار طيبة، الرياض 1402هـ)، وذكرنا معها موضع طبعة سهيل زكار (دار الفكر 1414هـ). وتاريخ خليفة: طبعة العمري الثانية 1397هـ.

رسائل ابن حزم: تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (2/229). ونفح الطيب للمقري: تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت (2/10، 2/45، 3/230).

مجموع الفتاوى لابن تيمية: جمع عبد الرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد، المدينة النبوية 1416هـ (المجلد العشرون). والإنصاف للدهلوي: تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، دار النفائس، بيروت 1404هـ.

الجامع لأخلاق الراوي للخطيب: طبعة محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض (الأرقام 168، 961، 969، 970). والفقيه والمتفقه: طبعة عادل الغرازي، دار ابن الجوزي.

جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر: طبعة أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي (الأرقام 1435، 1761-1765). والتمهيد والاستدكار: بترقيم النسخ الإلكترونية المفتوحة.

إعلام الموقعين لابن القيم: طبعة محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية (3/69 وما بعدها).

وبقيت إحالات في المعرفة والتاريخ والجرح والتعديل والانتقاء والحلية والسير وترتيب المدارك والديباج وتهذيب الكمال وتاريخ بغداد ووفيات الأعيان وشرح الزرقاني والمعارف على ترقيم النسخ الإلكترونية المعتمدة في الأصل، من غير تعيين مستقل للطبعة في كل موضع. يرجع إليها بهذا القيد، ولا يفترض تطابقها مع جميع الطبعات.

مصادر بواسطة وحدود المقابلة

نقل الأصل بواسطة عن كتب منها المنتخب من ذيل المذيل للطبري، وجذوة المقتبس للحميدي، وبعض نقول ابن خزيمة وابن حزم من طريق الزرقاني، ومقدمة تنوير الحوالك. كما لم يقرأ كتب التلاميذ قراءة متصلة. تبقى هذه الحدود محفوظة، ويعزى النقل إلى الوساطة حيث لم يقابل الأصل. وحذف من المتن العرض الأكاديمي الحديث الذي لم تستكمل قراءة أصوله؛ بقي سجل البحث في ملفات العمل.

قول «لم نجد» وصف لحدود البحث، وليس حكماً ببطلان الخبر. وكذلك عدم ثبوت رواية بالمادة المتاحة هنا لا يعني نفي وقوعها؛ فلا تساق مع ذلك واقعة يقينية أو أصلاً يبني عليه الاقتداء.

المراجع

تضم هذه القائمة المصادر القديمة التي اعتمدتها مادة الكتاب، ولا تعني تساوي جميع أخبارها في الثبوت. تبين الحواشي موضع النقل، وتذكر بيانات الطباعات حيث تعينت.

المصادر القديمة

ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد الرازي (ت 327هـ). الجرح والتعديل، ومقدمته «تقدمة المعرفة».

ابن أبي خيثمة، أحمد بن زهير (ت 279هـ). التاريخ الكبير، السفر الثاني. تحقيق صلاح بن فتحي هلال، الفاروق الحديثة، القاهرة.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (ت 728هـ). مجموع الفتاوى، جمع عبد الرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد، المدينة النبوية 1416هـ.

ابن حزم، علي بن أحمد الأندلسي (ت 456هـ). رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت 681هـ). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.

ابن سعد، محمد بن سعد كاتب الواقدي (ت 230هـ). الطبقات الكبرى؛ ومنه القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم. ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله النمري القرطبي (ت 463هـ). الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء. - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد. - الاستذكار. - جامع بيان العلم وفضله، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي.

ابن فرحون، إبراهيم بن علي اليعمري (ت 799هـ). الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب.

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري (ت 276هـ). المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1992م.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (ت 751هـ). إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت.

أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله (ت 430هـ). حلية الأولياء وطبقات الأصفياء.

خليفة بن خياط العصفري (ت 240هـ). الطبقات، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار طيبة، الرياض 1402هـ؛ وطبعة سهيل زكار،

دار الفكر 1414هـ. — تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمرى، ط2، 1397هـ.

الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت (ت 463هـ). الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض. — الفقيه والمتفقه، تحقيق عادل بن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي. — تاريخ بغداد.

الدهلوي، ولي الله أحمد بن عبد الرحيم (ت 1176هـ). الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، دار النفائس، بيروت 1404هـ.

الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ). سير أعلام النبلاء. — تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، 2003م.

الزرقاني، محمد بن عبد الباقي (ت 1122هـ). شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك.

سخنون بن سعيد التنوخي (ت 240هـ)، عن ابن القاسم عن مالك. المدونة، دار الكتب العلمية، 1415هـ.

الشافعي، محمد بن إدريس (ت 204هـ). الأم، ومنه كتاب اختلاف مالك والشافعي، رواية الربيع بن سليمان، دار المعرفة، بيروت 1410هـ.